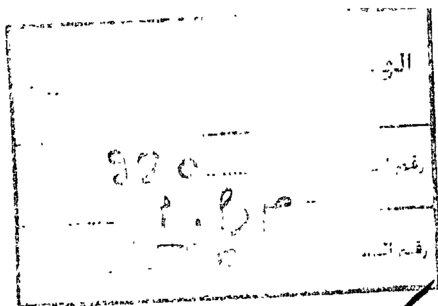


حلمي مراد يقدم :

اسكندر ديماس
وأعلام آخرين

١ ـــ الكسندر دُيماس (من أعلام الأدب)

٢ ـــ لويس باستير (من أعلام الطب)

٣ ـــ تشايكوفسكى (من أعلام الموسيقى)

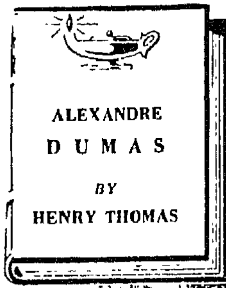
٤ ـــ مايكل أنجلو (من أعلام الفن)

٥ ـــ مختار (من أعلام النحت)

٦ ـــ نيتشة (من أعلام الفلسفة)

٧ ـــ ماركوني (من أعلام الاختراع)

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة





أعلام القصة :

الكسندر ديماس

مغامر في قصصه .. مغامر في حياته !

الصبى الذى أراد مبارزة .. « الله » !!

● من منا لم يقرأ « الفرسان الثلاثة » و « الكونت دى مونت كريستو » وغيرهما من قصص المغامرات الشائقة ؟.. ومن منا لا تتوق نفسه إلى معرفة طرف من حياة خالق هذه الروايات ، الذى يلمع اسمه فى ذاكرة كل صبى ، وشاب وشيخ : ألكسندر ديماس ؟

كان فى الرابعة من عمره حين مات والده .. فلما خرجت أمه من غرفة الموت ، رأت الطفل يصعد السلالم إلى سطح المنزل وهو يجر وراءه بندقية ثقيلة :

ـــ إلى أين أنت ذاهب يا بنى ؟

ـــ ذاهب إلى السماء !

ـــ إلى السماء ؟.. لماذا ؟

ـــ كى أبارز « الله » الذى قتل أبى !!

وهكذا ـــ كما فى الفرسان الثلاثة ـــ كان « ألكسندر » منذ طفولته الباكرة محاربا متهورا ضد القوى المنيعة التى لا تغلب !

جدته .. زنجية !

● **ولد** من سلالة اشتهر رجالها بشغفهم بالحروب والمغامرات .. حتى لقد تناسى جده « داڤى دى لابايترى » أرستقراطيته الموروثة ، وأطاع الحنين الذى يسرى فى دمه إلى حياة المغامرة فأقلع بسفينة صغيرة من أحد موانئ مقاطعة « نورماندى » متجها إلى جزيرة (سان دومينجو) .. حيث عاش أشبه بـ « إمبراطور » على الزنوج ، تحيط به رعية من العبيد السود ، كانت منهم « لويز ديماس » التى أنجبت له ابنا « مولدا » سماه أبوه « توماس ألكسندر » .

وورث توماس طباع أبيه « الفوارة » فبادره حين بلغ أشده :

ـــ أريد أن أتطوع فى الجيش ..

ـــ حسنا .. ولكن يجب أن تسجل نفسك فيه باسم أمك ، فإنه يشينني أن يحمل جندى مولد اسمى النبيل !!

وهكذا انضم توماس ألكسندر إلى الجيش الفرنسى فى سنة ١٧٩٣ باسم « ديماس » .. وخلال سبعة أعوام ارتقى من جندى بسيط إلى « جنرال » ! كان هذا « المولد » الأرستقراطى ذو البشرة السمراء والشعر الكستنائى محاربا شجاعا ، ذكيا ، رقيقا ، محبوبا من الجميع .. اجتاح مرة جبال « البيرينيز » وأسر ألفين من جنود الأعداء .. ودافع بمفرده عن قنطرة ضد فرقة من النمسويين .. وكان يحارب دائما فى

الصفوف الأمامية من فرقته .. وذات مرة أغمى عليه بعد انتهاء المعركة ، فسأله أركان حربه فى انزعاج وهو يفيق من إغمائه :

ـــ هل جرحت يا سيدى الجنرال ؟

ـ **كلا .. بل قتلت كثيرين .. كثيرين جدا !**

وحارب تحت قيادة نابليون كجمهورى ثائر .. وظل جمهوريا ثائرا حين صار نابليون إمبراطورا طاغية ، فطرد من الجيش ملطخا بهذا العار !

وكان قد تزوج ، ورزق طفلا عملاقا وزنه تسعة أرطال وطوله ثمانية عشر بوصة !.. ولحسن حظه جاء الطفل أبيض اللون ، ذا بشرة وردية وشعر فاتح وعينين زرقاوين . ولم يكن فيه من سمات الزنوج والمولدين غير اكتناز شفتيه ! .. **ونشأ « ألكسندر » منذ طفولته الباكرة قوى البنية والعقل والروح المعنوية ، ميالا إلى التمرد .. حتى لقد قال يوما : « إن ذلك الرجل الشرير « نابليون » قد لوث شرف أبى .. ولسوف أحارب الرجال الأشرار طيلة حياتى ! »**

الغلام المتمرد

● وشب الصبى كارها للمدرسة والتعليم ، فحاولت أمه تعليمه الموسيقى ، لكنه كان يكره الموسيقى أيضا . وأخيرا فكرت فى أن توجهه إلى تعلم الدين ليصير من رجاله ، فلما عرف نيتها هرب من البيت وظل مختفيا فى الغابات عدة أيام !.. وإذ ذاك يئست الأم من مستقبل ابنها وقالت : « **إنه لن يصلح إلا ناسخا ، فإن خطه جميل .. وإن كان أغبى**

غبى يستطيع أن يكون كذلك » !

لكن ألكسندر كان أبعد ما يكون عن الغباء .. كان قوى الملاحظة ، ذا عين نافذة البصر ، وعقل راجح ، وقلب يعطف على الإنسانية جمعاء . ورغم كراهيته للدرس والتحصيل ، كان شغوفا بتتبع الأحداث الجارية ، وكانت تلك الحقبة من تاريخ فرنسا حافلة بالأحداث المثيرة !.. ففى يونية سنة ١٨١٥ لمح الغلام — وكان فى الثالثة عشرة — عربة مقفلة تنهب الطريق الرئيسية فى بلدة « فيير كوتريه » ، واستطاع أن يميز وراء الستار صورة جانبية لوجه رجل حازم القسمات ، حاد النظرات ، فهتف قائلا : « إنه نابليون فى طريقه إلى ووترلو » .. وبعد أيام رأى العربة ذاتها تنهب الطريق نفسها فى الاتجاه المضاد ، وخلف الستار نفس الوجه متهالكا على الوسادة ، محطما .. فقال الغلام الذكى : « إنه نابليون .. هاربا من ووترلو .. » !

وعلى إثر هزيمة نابليون حاولت أم ألكسندر أن تسترد ثروتها ومكانتها ، فخيرت ابنها بين أن يتخذ لنفسه اسم جده الأرستقراطى القديم « دى لابايترى » أو أن يحتفظ باسم « ديماس » المجهول المتواضع ، فصاح المتمرد الصغير :

— سوف أظل دائما « ألكسندر ديماس » !

ولكن كيف يكسب ألكسندر ديماس — حفيد العبد الزنجى — ما يقيم أوده هو وأمه ؟ .. لم يجد وسيلة غير تنفيذ فكرة أمه القديمة : استغلال خطه الجميل المنسق فى أعمال النسخ ، فالتحق كناسخ بمكتب الأستاذ « جينيسون » موثق العقود ، وصديق العائلة !

ناسخ .. و « دون جوان » .. وكاتب مثابر !

● وفى المكتب المذكور صار الغلام يقرأ أكثر مما يكتب ، رغم استياء صاحب العمل ، فقرأ مؤلفات فولتير وغيره من كتاب الثورة .. ثم لم يلبث أن تنبه إلى إغراء قوامه الفارع وابتسامته الجذابة — وكان قد بلغ السادسة عشرة — فوجه همه إلى إيقاع فتاة تدعى « أديل دالفان » فى شباك غرامه .. فلما نجحت مغامرته بسهولة وبساطة ، بدأ يستغل « موهبته » الجديدة على نطاق واسع ، فلم يلبث أن صار « دون جوان » البلدة !

ثم اتسعت مطامعه .. لم يضيع مؤهلاته فى بلدة صغيرة مثل (فيير كوتريه) .. لم لا يذهب إلى باريس ؟

ولكن كيف ؟.. إن أمه فقيرة ، وإيراده من عمله أضأل من أن يكفى لرحلة إلى باريس !.. لكن عزيمة ألكسندر لم تكن تعترف بالصعاب ، فصار يستغل ساعات فراغه فى إتقان لعبة « البلياردو » حتى برع فيها . وذات مساء تحدى رواد الحانة التى يلعب فيها أن ينازلوه فى اللعبة . وعاد إلى البيت فى تلك الليلة وفى جيبه نفقات السفر إلى العاصمة !

ولم يكد يصل إلى باريس حتى يمم وجهه شطر (المسرح الفرنسى) ، ثم دلف إلى غرفة الممثل التراجيدى الشهير — فى ذلك الوقت — « تالما » ، إذ لم تكن ثمة عقبة تقف أمام هذا « الصاروخ » البشرى الخاطف ! .. وسر الممثل الشيخ بروح الفتى المغامر فسأله متلطفا :

— ما هو عملك يا صديقى ؟

— فى الوقت الحاضر أنا ناسخ عند موثق عقود ، يا سيدى .. لكنى أريد أن أكون كاتبا !

— ولم لا ؟.. إن « كورنى » المؤلف المسرحى العظيم كان أيضا فى شبابه يعمل فى مكتب موثق عقود !

— شكرا يا سيدى .. ثم ، هل تتكرم بلمس جبهتى .. كى تجلب لى الحظ ؟

فضحك الممثل وأجاب وهو يضع كفه على جبهة الشاب :

— بكل سرور .. ها أنا أعمدك شاعرا باسم شكسبير وكورنى وشيللر !



وكان الممثل هازلا فى ضميره أكثر منه جادا بالطبع . لكن الأمر بالنسبة لديماس لم يكن هزلا .. « رباه .. شاعر باسم شكسبير وكورنى وشيللر ؟ ولم لا ؟ .. سوف أحقق النبوءة .. وسوف أثبتها لتالما وللعالم

أجمع .. منذ هذه اللحظة ! » .

ولم يكد يصل إلى البيت حتى تناول الورق وشرع يقتبس مسرحية من رواية «والتر سكوت » الخالدة « أيفانهو » ! وحين أتمها طاف بها على الناشرين فلم يقبلها أحد . وأصاب المصير نفسه مسرحيته الثانية ، ثم الثالثة .. ورغم هذا لم يتطرق إلى قلبه اليأس فاستمر ينتج ، ويؤمل ، وينجب من صديقاته أطفالا غير شرعيين ! ويؤلف قصصا ومسرحيات ، محاولا أن يفرض مواهبه على سمع الناس وبصرهم فرضا ، وينتصر على عناد القراء والناشرين ! وحيثما كان ناشر أو صاحب صحيفة يرفض مقابلته ، كان يلتفت إلى سكرتيرته ويقول : « شكرا يا مدموازيل .. ولكن همتى لا تثبط بسهولة .. سوف آتى مرة أخرى .. » !

شهامة ملك المسرح الباريسى !

● وأخيرا ، انتصر ، بفضل إلحاحه الباسم ومثابرته المؤدبة .. فقبلت إحدى مسرحياته المسماة « الملكة كريستينا » لتمثل على المسرح الفرنسى . واختير الممثلون ، وبدأت البروفات ، وابتسم الحظ والمجد للمؤلف الشاب .. لكنه أضاع فرصته بيده فجأة ، حين سحب روايته ، كى يفسح المجال أمام مؤلف عجوز كان قد قضى حياته كلها فى محاولات فاشلة ، فى سبيل الظفر بتمثيل رواية من رواياته على المسرح .. وكان قد ألف آخر مسرحية يدور موضوعها حول حياة

الملكة كريستينا أيضا .. فأشفق عليه ديماس وقال : « فلينعم الرجل بتحقيق حلمه مرة قبل أن يذهب إلى القبر .. » !.. وسحب روايته هو !

وشرع ديماس على الفور فى وضع مسرحية جديدة عن « هنرى الثالث » ، وعثر على مخرج لها ، فبات يترقب الليلة الأولى لتمثيلها بصبر نافد . وفى ليلة ١١ فبراير سنة ١٨٢٨ أعد المؤلف ثياب السهرة مقدما ، وبدأ يرتديها فى الموعد المحدد كى لا يفوته من حفلة الافتتاح شىء !.. وارتدى فعلا بنطلونه وقميصه وحذاءه .. وفجأة اكتشف أنه قد نسى أن يشترى الياقة المنشاة ، فاختطف مقصا وقص لنفسه ياقة من الورق المقوى ، ثم هرع إلى المسرح ، وأطل من خلف الستار على الصالة فوجدها مكتظة بالنظارة .. وظفرت الرواية بنجاح هائل .. ولم يكد يسدل الستار على الفصل الأخير منها ، حتى هزت المسرح عاصفة من التصفيق الشديد ، تحولت إلى نوبة جنونية حين ظهر المؤلف الشاب فى مقصورته « برأسه المرفوع إلى أعلى حتى لتكاد خصلة شعره الثائرة أن تشتعل بالنار من لمس النجوم » .. وهكذا صار الفتى « المولد » بياقته المصنوعة من الورق المقوى « ملك المسرح الباريسى » !!

وتربع ديماس على عرش مملكته كأنما قد ولد ملكا .. فصار يوزع الابتسامات ، ويتقبل التحيات ، ويستنشق عبير النجاح فى جلال ومهابة الملوك !

وتتابعت المسرحيات ، والانتصارات ، ومن ثم .. العشيقات !

المحارب الثائر

● ثم أتيحت له مغامرة من نوع جديد..

كان « شارل العاشر » قد أصدر لائحة تحد من حرية الصحافة أثارت ثائرة المثقفين فى باريس ، وانضم ديماس إلى الثائرين المسلحين . ولكن الثورة تمخضت عن خيبة أمل .. فإن الثوار لم ينجحوا إلا فى استبدال حاكم أسوأ بحاكم سيئ .. فزهد ديماس فى السياسة ، وآثر العودة إلى الميدان الآخر الذى نجح فيه : ميدان الأدب .. فكتب مسرحية « أنطونى » التى يدور موضوعها حول الثلاثى الخالد : امرأة ورجلين !.. **فهتفت باريس كلها لحبكتها ومواقفها « المكشوفة » التى تعالج الرذيلة بصراحة تامة .. وبلغت الحماسة بالمتفرجات فى الليلة الأولى حد تمزيق سترة المؤلف ، تحية وإعجابا .. وهن يتهامسن : « أواه .. ياله من شاب جرىء رائع ! »** .

واستمر « المولد » الجرىء الرائع ، ذو السترة الزاهية والأسنان البراقة ، يدور فى ساقية الأقدار التى لا تدوم على حال .. يوم له ويوم عليه !.. يوم تظفر رواية له بالنجاح ، ويوم يولد له طفل ، ويوم يهجر عشيقته ، ويوم يصاب بالكوليرا وينجو منها !.. ثم رواية أخرى ناجحة ، ثم اشتراك فى ثورة أخرى فاشلة ، ثم فرار إلى سويسرا للنجاة من أمر بالقبض عليه باعتباره « جمهوريا خطرا » .. **ثم نزوة طارئة توحى إليه**

بأن يصير من رجال الدين : « ولم لا ؟.. لقد خلقت مسرحا جديدا ، فلم لا أؤسس نظاما دينيا جديدا ؟ » !!

لكنه نبذ الفكرة بالسرعة نفسها التى اعتنقها بها .. فقد كانت طبيعته البركانية أحدّ من أن تطيق عزلة الدير ، وملذات الدنيا أمتع من أن يستبدل بها وعود الآخرة !.. **ففضل أن يظل دنيويا وثنيا .. وأن يدفع الثمن !**

وظل وثنيا مستهترا إلى آخر حياته .. يسامر الرجال ، ويغوى زوجاتهم ، ويكتب مسرحياته ، ويستمتع بالمجد ، ويواجه فشله وانتصاراته بعدم مبالاة .. فيتلقى ثناء النقاد بهزة من الكتف ، وانتقاداتهم وإهاناتهم .. بابتسامة !

الطير .. فى القفص !

● وفى ٦ فبراير سنة ١٨٣٢ ظهرت فتاة موهوبة من (مونبارناس) تدعى « إيدا فيرييه » لأول مرة على خشبة المسرح ، فى رواية ديماس المسماة « تيريز » .. فلما أسدلت الستار ، ارتمت الممثلة فى أحضان المؤلف تهتف فى جذل : « مسيو ديماس ، لقد كنت سبب شهرتى فكيف أرد لك الجميل ؟ » .

فأجابها وهو يبتسم لها ابتسامته الخلابة : « هذا أمر سهل للغاية ! » .

وظلت « ترد له جميله » سنوات !.. وذات يوم فوجىء أصدقاؤهما بزواجهما . واستكان ديماس لحياة البيت والأسرة ، ولكن الأغلال اتسعت حول رقبته القوية ، فصار يتحرر منها أحيانا كى يقوم بمغامرات

غرامية فى الخارج !.. **وسمح لزوجته أن تبحث عن مغامراتها الخاصة فى داخل البيت ، فقد كان شعاره : « عش ودع غيرك يعيش » !!**

وهكذا عاش يبحث دائما عن ملذات جديدة ، وغراميات جديدة ، وهتافات جديدة من الجماهير .. لكنه بدأ يمل نجاحه كمؤلف للمسرح ، وكانت نيران الثورات قد أخمدت فى شتى البلاد ، فكان لا بد لنشاطه الخارق أن يجد لنفسه متنفسا جديدا .. ولكن أين ؟.. وكيف ؟

واهتدى إلى الميدان الجديد .. فكر أن يطرق باب تأليف القصص ذات المغامرات التاريخية .. إنه سوف يبعث الماضى الميت إلى الحياة مرة أخرى .. وإذا كان « والتر سكوت » ملك المغامرات القصصية قد مات ، فليحيى الملك الجديد « ألكسندر ديماس » !

وعكف على روايته الأولى « الفرسان الثلاثة » يخلق وقائعها الشائقة ويمزج فيها التاريخ بالغرام مزجا رائعا ، مستعينا على تحقيق الوقائع التاريخية وتحرى حقائقها بشاب موهوب تخصص فى الدراسات التاريخية يدعى « أوجست ماكيه » .. وكان مبدأ ديماس فى أبحاثه أن يتحرى الدقة فى أحداث التاريخ الهامة دون وقائعه التافهة .. **واستباح « العدوان على حرمة التاريخ بشرط أن ينجب منه طفلا » .. على حد تعبيره !**

لا يتعب من التأليف .. والضيافة !

● وظل يعمل فى روايته بلا ملل أو تعب ، من السابعة صباحا إلى السابعة مساء .. مرتديا قميصا مفتوحا عند الرقبة ، وإلى جواره صينية عليها طعام الغداء ، الذى كان ينشغل عنه أحيانا فلا يمسه !.. وحين يدخل عليه زائر يكتفى بتحيته بيده اليسرى بينما يده اليمنى ماضية فى الكتابة !

وكان دائما يكتب وهو حاضر الذهن ، فيسامر شخصيات روايته ، ويعيش معهم ، ويحدثهم ، ويضحك معهم !.. ودخل مرة زائر إنجليزى ، فلما سمع ضحكة طويلة صادرة من غرفة المؤلف قال لخادمه معتذرا : « سوف أنتظر حتى يخرج الزائر الذى يجلس مع سيدك » !.. فأجابه الخادم : « ولكن سيدى بمفرده .. إنه فقط يستمتع بنكتة لطيفة سمعها من إحدى شخصيات روايته ! » .

ورغم انشغاله طيلة النهار بالتأليف ، كان فى الليل يجالس أصدقاءه وصديقاته بنفس منتعشة وجسم نشيط .. وحين سأله بعضهم كيف يحتفظ هكذا بنشاطه بعد يوم شاق يقضيه فى شحذ ذهنه ، أجاب بأن الكتابة بالنسبة إليه ليست شحذ ذهن شاق كما يتصور الناس .. « **فإنى لا أخلق رواياتى ، وإنما هى التى تخلق نفسها فى أعماق** » !

ــ وكيف ذلك ؟

ــ **لا أعرف .. سلوا شجرة البرقوق كيف تنتج ثمارها ؟!**

والواقع أنه كان يملك موهبة الخلق النادرة الغامضة ، إلى جانب موهبة « الصداقة » الأشد ندرة وغموضا !.. كان بيته وقلبه مفتوحين أبدا للناس .. وكانت فترة الغداء فى بيته تبدأ فى منتصف الثانية عشرة ، وتنتهى فى منتصف الخامسة !.. فقد كانت مائدته دائما تضم ضيوفا جددا يأتون على غير انتظار ، فيهرع خدمه إلى حانوت القصاب يبتاعون منه مزيدا من اللحم .. وحين كان رب البيت يجد فراغا لمسامرتهم ، كان يتنقل بينهم مرحبا فى بساطة وانشراح ، بالمدعوين منهم والذين أتوا منهم بغير دعوة على السواء !.. **وذات مرة سأله أحد ضيوفه أن يقدمه إلى شخص من الحاضرين ، فأجابه معتذرا : « يؤسفنى أنى لن أستطيع ذلك .. فإن أحدا لم يقدمه إلى حتى الآن ! » .. فقد كان المضيف لا يعرف ضيفه الطفيلى !**

وكان كرمه أشبه ببئر عميق لا قرار له يلقى فيه بكل إيراده .. فظل دائما غارقا فى الديون ، وكان المحضر من أكثر زواره انتظاما !.. سأله صديق له فى أحد الأيام أن يساهم فى التبرع من أجل دفن أحد الموتى الفقراء ، فأخرج من جيبه خمسة عشر فرنكا وسأل صديقه :

ــ ومن يكون الفقيد المسكين ؟

ــ محضر ..

ــ إذا كان الأمر كذلك فخذ خمسة عشر فرنكا أخرى وادفن محضرين !

(الكسندر ديماس)

مع الحرية .. فى كل مكان !

● وبينما كان « جيب » ديماس فارغا على الدوام ، كان مجده يرتفع بسرعة وانتظام . وبعد أن كان يخرج من التاريخ قصصا ، صار يخلق من القصص تاريخا !.. ومنذ أصدر قصته الخالدة الحية بالشخصيات « الكونت دى مونت كريستو » ـــ بمعاونة مساعده ماكيه ـــ صار أدلاء مدينة « مرسيليا » يرشدون السياح إلى البيوت التى عاش فيها « موريل » و « مرسيدس » .. والزنزانة التى قضى فيها « إدموند دانت » والأب « فاريا » سنوات طويلة من عمريهما ، فى سجن قصر « إيف » .. فقد خلق ديماس من الضباب والبخار مبانى ومساكن صلبة وأشخاص أحياء !

وقد اتهمه أعداؤه بأنه كان يدير « فابريقة » للقصص !.. والحقيقة أنه كان يكلف ماكيه ومساعديه الآخرين بجمع الوقائع الجامدة لقصصه ، ثم يتناول الوقائع فينفخ فيها نار الخيال وأنفاس الحياة !.

وهكذا عاش فى غرفة مكتبه حتى مغرب حياته ، أشبه براوية القصص العربى الذى يسهر مع قبيلته تحت سماء الصحراء التى تضيئها النجوم ، كما وصف نفسه !.. لكن كأس نجاحه امتزجت قرب النهاية بشىء من المرارة .. مرارة الحسد !.. **لكن حسده لم يكن يخلو من فخر ، فإن هدفه لم يكن غير ابنه « إسكندر ديماس الابن » ، الذى أصدر فى تلك الأثناء قصته**

الخالدة « غادة الكاميليا » ، فظفرت بنجاح ورواج فاقا أقصى ما حظى به الأب طيلة حياته . ومنذ ذلك التاريخ ، أخذ الأب والابن يتنافسان ، وكلاهما يحاول التفوق على الآخر ، وفى الوقت نفسه ، كلاهما يحب الآخر إلى درجة العبادة !.. قال الأب فى إحدى المرات وهو يمزح: «لقد ربيت ولدا.. تكشّف لى فى النهاية عن أفعى!».. ورد الابن التحية قائلا: «وأنا ربيت أبا.. تكشف لى فى النهاية عن طفل! » .

وقد ظل « الطفل » حتى النهاية شغوفا بالمغامرات ، والضحك ، والجرأة التى لا تقف فى طريقها عقبة !.. فبالرغم من تقدمه فى السن ، واكتناز جسمه باللحم ، بقى ذهنه ثائرا كالعهد به ، فلم يكن يسمع بثورة تنشب فى مكان حتى يلقى بنفسه فى دوامتها !.. وفى سنة ١٨٤٨ أبدى استعداده لقيادة الحرس الوطنى إلى باريس ، لكن الحرس الوطنى رفض أن يتبعه !.. **وفى ١٨٥٩ انضم إلى « غاريبالدى » ، ولم يكتف بالتنازل عن ثروته البالغة خمسين ألفا من الفرنكات لقضية تحرير إيطاليا ، بل أبدى استعداده للتضحية بحياته فى سبيلها !**

وهكذا ظلت قوته الخارقة ونشاطه العجيب قابلين دائما لأن يترجما إلى حركة .. من أى نوع . لم يكن يستطيع أن يخلد للراحة . وعند عودته ذات يوم من زيارة ثورية لإيطاليا ــ وكان فى سن الثالثة والستين ــ استقبله ابنه فى المحطة ، وكانت الساعة العاشرة مساء ، قائلا فى إشفاق :

ــ لا بد أنك تعانى تعبا شديدا من رحلتك يا أبى .. دعنى أصحبك إلى البيت ..



ـــ كلا .. بل أريد أن أرى « جوتييه » قبل أن أنام .

وقاد ابنه من يده إلى عربة أوصلتهما إلى منزل الصديق القديم فى « نوينى » فوجدا البيت مقفلا ، وإذ ذاك رفع الأب عقيرته بالصياح حتى أيقظ جوتييه من نومه .

ـــ من هناك ؟

ـــ ديماس الأب .. وديماس الابن !

ولم يخرج الاثنان من بيت الصديق إلا فى الساعة الرابعة صباحا .. وحين بلغا بيتهما قال الأب لابنه :

ـــ أريد أن تأتى لى بمصباح ..

ـــ لماذا ؟

ـــ عندى عمل يجب أن أنجزه !

وترك الابن أباه جالسا إلى مكتبه ومضى هو لينام !.. **وحين استيقظ**

بعد الفجر وجد فوق المكتب ثلاث مقالات كاملة معدة لثلاث مجلات مختلفة .. ورأى أباه أمام المرآة يحلق لحيته وهو يغنى !

ـــ كيف حالك يا أبتاه ؟

ـــ فى أتم نشاطى يا ابنى .

ثم غمز له بعينه واستطرد : « **إننا نحن الشبان ، لا نتعب سريعا مثلكم .. أيها الشيوخ !** »

الغرام الأخير

● **وأخيرا** ، حطم « الشاب » قلمه فى سن الثامنة والستين وأخلد للراحة .. لا لأنه تعب من مغامراته ، بل لأنه كان يبحث عن تجربة جديدة !.. وكان قد فرغ من مغامرة غرامية مع ممثلة أمريكية تدعى « إدا منكن » ، وكان غرامها أشبه بعاصفة قصيرة ، عنيفة ، مكتسحة ، انتهت بمأساة ، حين سقطت المرأة عن جوادها فماتت لساعتها .. وعلى إثر ذلك توجه ديماس إلى منزل ابنه :

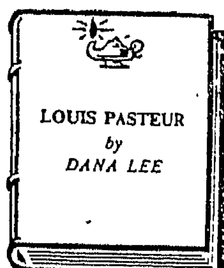
ـــ لقد جئت إليك يا ابنى .. كى أموت !

ومنذ تلك اللحظة لاذ بالصمت !.. وكلما كان أصدقاؤه يهزون رؤوسهم فى أسى ويقولون إن ديماس قد انهار وأصابه الانحلال .. كان ابنه يجيبهم :

ـــ إن عقلا مثل عقل أبى لا يمكن أن يصاب بالانحلال .. ولئن رفض أن يكلمنا بلغة الدنيا ، فلأن ذهنه مشغول بتعلم لغة الآخرة .. لغة الأبدية !

لويس

باستير



الرجل الذى أنقذ حياة الملايين من الناس !

قصة حياته وكفاحه ضد المرض والجهل



● **« إنه أهدا وأصغر وأكسل طالب فى الفصل ! »** .. تلك كانت شهادة المدرس عن التلميذ « لويس باستير » .. لكن الفتى كان ذا فضول نهم لا يشبع ولا يقنع ، فلم يكن يكف عن توجيه الأسئلة المحيرة إلى مدرسيه ، حتى اضطر أحدهم إلى أن يصدمه يوما بهذه الملاحظة : « اسمع يابنى ، دعنى أذكرك أنه ليس من واجب التلميذ أن يسأل ، بل أن يجيب على الأسئلة ! » .

وبقدر ما كان الطالب لويس باستير فضوليا لحوحا كانت فيه صفة أخرى نادرة ، هى جلده وصبره على العمل ، فكتب مرة يقول . « **إن أهم ثلاث كلمات فى القاموس هى : « العزيمة ، والعمل ، والانتظار »** .. **وهى الدعائم الثلاث التى سوف أبنى عليها هرم نجاحى ! »** .

ابن الدباغ !

● وقد كان أبوه دباغا للجلود ، فورث « لويس » رائحة الجلود فى دمه .. حتى إنه حين استبد به الشوق والحنين إلى والديه أثناء غربته فى باريس والتحاقه بمدرسة « النورمال » كتب إلى أبيه خطابا يقول فيه : « آه لو أمكننى فقط أن أتنسم الآن رائحة الجلود المدبوغة ، لشفيت على

الفور من حنينى إلى بلدتى » .

وكان لويس قد انتوى منذ صباه الباكر أن يصير « كيميائيا » ـــ فما بين الدباغة والكيمياء إلا خطوة قصيرة ! ـــ لكن أهل قرية « أربوا » كانوا يتحسرون آسفين على هواية الصبى للكيمياء ، فيقولون لأبيه : « من دواعى الأسف أن يضيع لويس وقته فى هذا العلم العقيم ! » .. لكن « باستير » الأب كان مؤمنا بابنه ، فكان يجيبهم فى ثقة ويقين : « أنا واثق أننى أستطيع الاعتماد على رأيه فى شأن مستقبله ! » .

ولكن حتى الأب بدأت تساوره الشكوك فى صحة اختيار ابنه لمهنة مستقبله ، حين حصل لويس على دبلوم العلوم بدرجة « متوسط » ـــ فقط ! ـــ فى الكيمياء !.. لكن الفتى كتب لأبيه يقول : « تذرع يا أبى بالصبر ، وثق بى ... فلسوف أتقدم فى مهنتى بمرور الأيام . » .

الجوع فى سبيل العلم !

● وواصل « باستير » فعلا دراسته لنيل الدكتوراه فى الكيمياء .. واضطر فى سبيل تحصيل نفقاتها إلى إعطاء دروس خصوصية لبعض التلاميذ فيما بين الساعة الخامسة والسابعة صباحا !.. كما اضطرته حاجته لمزيد من المال إلى الإقلال من كمية طعامه ونفقات طهوه وخشب مدفأته ، إلى أدنى حد ممكن ، فكانت تمر به أيام يقاسى فيها آلام الجوع ، وفى هذا يقول : « كان من حسن حظى أننى كنت كثيرا ما أصاب بصداع فى رأسى يطغى على آلام معدتى وينسينى مرارة الجوع ! » .

التلميذ يصبح أستاذا !

● وفى خلال تلك الفترة تلقى لويس «وقودا » جديدا لأطماعه هو محاضرات الكيميائى الشهير « ج . ب . دوماس » فكتب يصفها لأبيه بقوله : « إنك لن تستطيع تصور الإقبال الذى تلقاه هذه المحاضرات من الجمهور .. فمسيو دوماس ليس كيميائيا فحسب ، بل هو شاعر يعرف كيف يثير خيال وفضول سامعيه ! » .

وبفضل « الدفعة » القوية التى استحثه بها علم هذا العالم الكبير كتب باستير رسالتين ــ بدلا من واحدة ــ لنيل درجة الدكتوراه ! .. فلما بلغت أنباء حصوله على الدرجة مسامع أسرته فى « أربوا » شملهم الفرح والابتهاج ، واحتفل البيت بنجاح الفتى المغترب . وكتب الأب لابنه يقول : « إننا لا نستطيع تقدير رسالتيك ، لأن مداركنا تعجز عن فهمهما ، ولكننا نستطيع تقدير خلقك القويم ، فإنك لم تمنحنا غير أسباب الرضى الدائم » .

ولقد فتح نجاح لويس أمامه فعلا أبواب مستقبل جدير بالرضى التام ، بل مستقبل باهر حقا .. فقد عين من فوره مساعدا للبروفيسور « لوران » أستاذ الكيمياء بمدرسة « النورمال » التى تلقى بها علومه .. وهكذا صار التلميذ بها أستاذا ، فتحقق حلمه الذى كد وسهر من أجله الليالى !

العالم يصير جنديا ..!

● .. ولكن فجأة ، ضحى لويس بذلك المركز الكبير الذى بلغه بشق النفس ، فقد نشبت فى فرنسا ثورة ١٨٤٨ فأبى عليه حبه لبلاده إلا أن يبذل لها « على مذبح الحرية » أكبر تضحية فى مقدوره ، فتبرع لقضية الوطن بمبلغ المائة والخمسين فرنكا الذى كان قد ادخره، وترك عمله فى الكلية كى يلتحق بالحرس الوطنى . لمدينة « أورليان » مبديا استعداده للتضحية بعد ماله بحياته !

العلم يفتدى إمامه !

● ولكن كان من حسن حظ الإنسانية أن لم تتح للفتى فرصة الاشتراك فى القتال ، فقد انتهت الثورة قبل أن يجىء دوره فى التجنيد العام ، فعاد إلى معمله ودراساته الكيميائية ، وبخاصة دراسة نظريات « التبلور » التى انتهت أبحاثه فيها آخر الأمر إلى عدة كشوف علمية هامة لمركبات ومستحضرات كيميائية كثيرة وصفها باستير بأنها : « **أشبه بتشييد أبنية جديدة تخالف الأبنية القديمة فى التراكيب كل المخالفة ، وإن كانت مادتها جميعا واحدة هى الطوب والأحجار !** » .

على أن تلك المكتشفات التى تواضع باستير فنسب الفضل فيها إلى

« محض الصدفة » — وإن كانت قد كلفته شهورا طوالا من البحث الشاق المتواصل — سرعان ما بلغت مسامع مسيو « بوبى » أستاذ الطبيعة بجامعة « السوربون » ، فأعجب بها ، ومن ثم زود باستير بخطاب توصية فتح أمامه أبواب جامعة ستراسبورج ، وقد جاء فى الخطاب : « إن مسيو باستير كيميائى نابه .. ولقد أتم أخيرا سلسلة بحوث وتجارب تسترعى النظر ، وما من شك فى أنه لو أعطى الفرصة الملائمة فى إحدى جامعات الدرجة الأولى ، لصار له شأن كبير .. إلخ » .

ساعة لقلبك ..!

● وهكذا ، وفى يناير سنة ١٨٤٩ ، تسلم باستير منصبه الجديد كأستاذ للكيمياء بجامعة ستراسبورج !.. وللحال بدأ الفتى أبحاثه فى ميدان جديد ، ميدان الحظوة بقلب المرأة !

وكانت الفتاة موضع « أبحاث » باستير تدعى مدموازيل « مارى لوران » — ابنة عميد جامعة ستراسبورج — التى لم يكد باستير يدخل الجامعة ويراها حتى علق بها ، فكتب إلى أبيها خطابا طريفا قال فيه : « **إن أبى دباغ جلود فى « أربوا » وأخواتى الثلاث يعاونّه فى عمله وفى بيته ، مكان أمنا التى فجعنا بوفاتها فى مايو الماضى .. وأسرتنا ليست غنية وإنما متوسطة الحال .. أما عن نفسى فقد اعتزمت منذ زمن أن أتنازل لأخواتى عن نصيبى فى الميراث .. وإذن فأنا لا أملك شيئا من المال . كل ما أملكه : صحتى ، وشجاعتى ، ومنصبى ... وإنى أنوى تكريس حياتى**

للأبحاث الكيميائية التى أعتقد أننى سوف ألاقى فيها نجاحا لا بأس به ... وبهذه المؤهلات المتواضعة أتقدم طالبا يد ابنتك ! » .

ممانعة ، فإلحاح ، فقبول !

● وككل أب متعقل ، أحال والد الفتاة خطاب باستير إلى ابنته ، كى تبدى فيه رأيها .. وكان الرأى مخيبا لأمل لويس !.. لكنه كان أحصف من أن يترك التجربة نهائيا لمجرد فشله فيها مرة ، فأعاد الكرة بخطاب آخر وجهه فى هذه المرة إلى أم الفتاة قائلا : « **أخشى أن تكون مدموازيل « لوران » قد بنت قرارها على الأثر الذى أحدثته فى نفسها رؤيتها إياى لأول مرة ، التى ما كان يمكن أن تؤدى إلى غير هذه النتيجة ، فإنه ليس فى هيئتى ما يجذب الفتيات . لكن ذاكرتى تقول لى إن جميع الذين عاشرونى مدة كافية .. أحبونى ! » .**

ولم يكتف الشاب بهذا الخطاب الثانى ، بل دفعته طبيعة العالم المثابر إلى أن يردفه بخطاب ثالث — إلى الفتاة نفسها فى هذه المرة ! — جاء فيه : « كل ما أسالك إياه يا آنسة ألا تتسرعى فى الحكم على ، فقد تخطئين فى حكمك ، ولسوف تظهر لك الأيام أن خلف هذا المظهر البارد الذى رأيته ، قلبا يفيض شغفا بك .. » .

الزوجة .. أم أنبوبة الاختبار ؟

● وأحدث الإلحاح أثره ، فربح الفتى المعركة ! .. وحدد للزواج مساء يوم ٢٩ مايو سنة ١٨٤٩ .. ولكن فى اللحظة الأخيرة حدث هرج ومرج .. **فقد وصل المدعوون ، والعروس ، وأهلها ، والقسيس ، ولكن العريس لم يظهر له أثر ! .. فتساءل الناس قلقين : « أين الكيميائى الشاب بوبكم ؟ »** .

وأين يمكن أن يكون ، إلا فى معمله ؟ .. وحين هرع إليه صديقه « كابيوس » وجده مكبا على أنابيب الاختبار ، لاه عما عداها !

ـــ أنسيت أيها الأحمق موعد زواجك !

ـــ كلا ..

ـــ إذن فماذا تصنع هنا ؟

ـــ أتمم عملى ، أيها الغبى ، أوَ تنتظر منى أن أترك التجربة قبل نهايتها ؟

الشهرة .. والغيرة .. والحسد !

● ولم تأسف « مارى لوران » قط على زواجها من باستير .. وإن مرت بها أوقات أنبته فيها على استغراقه الزائد فى عمله ، ومعمله .. أما هو فكان يهدىء من ثائرتها بقوله إنه سوف يفتح أمامها طريق الشهرة والمجد !

وقد كان .. فتح باستير لنفسه ولزوجته طريق الشهرة والمجد .. لكنه فتح معه طريق الآلام والمتاعب أيضا ، إذ لم يكن من الممكن أن تنجو من المتاعب زوجة عالم قد أثار نبوغه حفيظة وغيرة وحقد زملائه العلماء غير الموهوبين ..!

وقد بدأت الغيرة والكراهية تحوطانه منذ البداية ، منذ أعادته أبحاثه من ميدان الكيمياء إلى ميدان الطب البيولوجى ، فكتب إلى صديقه « كابيوس » يقول : « **إننى أطارد بكل قوتى غوامض المشكلة الأزلية الرهيبة ، مشكلة الحياة والموت ، وأرجو أن أصل بشأنها فى القريب العاجل إلى كشف حاسم !** » .

ورغم نصيحة أخلص أصدقائه له بالكف عن إضاعة وقته فى موضوع شائك عقيم كهذا ، فإنه مضى فى أبحاثه دون أن تثبط نصائحهم همته .. وكان أول ما تصدى له فى مجال بحثه هدم النظريات التى كانت شائعة فى عصره عن إمكان انبثاق الحياة فى بعض الكائنات الضئيلة والحشرات من أجسام ميتة تماما .. وقد تشيع للنظرية اثنان من أئمة العلم فى عصره ، هما البروفيسير « بوشيه » والبروفيسير « جولى » ، اللذان راحا يوزعان النشرات المليئة بالقدح فى باستير والطعن فى علمه ، إلى حد اتهامه بأنه « مهرج ودجال وبهلوان ! » .. لكنه كتب إلى أبيه يقول : « فليزعم خصومى ما يشاؤون ، أما الحق فهو فى جانبى ! » ..

ثم وطن باستير نفسه على أن يقابل مطاعن حساده بابتسامة ساخرة ، وكان يقول لزوجته : « **إن رجل العلم يجب أن يعبأ بما سوف يقال عنه فى الأجيال المقبلة ، وليس بالإهانات والحملات التى توجه إليه**

أثناء حياته ! » .

وأخيرا أحيلت مشكلة « منشأ الحياة فى الكائنات » إلى لجنة من أكبر العلماء لمناقشة حجج الطرفين وتجاربهما ، فانتهت اللجنة إلى الاقتناع بصدق نظرية باستير وخطأ خصومه ، وقررت أن « الأجسام الحية لا يمكن أن تستمد حياتها إلا من أجسام حية ! » ..

غزواته ضد الجراثيم

● أما وقد فرغ باستير من معركة « أصل الحياة » ، فقد نقل نضاله إلى ميدان جديد ، ميدان « المحافظة على الحياة » ! .. **فإن وباء خطيرا غامضا كان قد تفشى فى تلك الفترة فى دود القز بمقاطعة (آليه) ، مما هدد صناعة الحرير فى فرنسا كلها بالخراب ! .. فدعى باستير — الذى كانت انتصاراته السابقة قد أهلته لعضوية « الأكاديمية الفرنسية » — للقيام بتحقيق علمى للاهتداء إلى سبب الوباء واكتشاف طريقة لإيقافه ..**

ولكن شهورا مرت دون أن يتمكن العالم المنتدب من النجاح فى مهمته ، فرأى خصومه فى ذلك فرصتهم للنيل منه واستئناف الحملة عليه ، وامتدت عدوى الحملة إلى الزراع والفلاحين الذين كانوا يرون ديدانهم تموت كل يوم بالألوف ، فراحوا بدورهم يتساءلون غاضبين : «ماذا يستطيع «كيميائى» أن يفعل فى أمر كهذا؟».. لكن باستور صمد لهجمات خصومه مكتفيا فى الرد عليهم بكلمته المأثورة « صبرا ! » .

فواجع ثلاث !

● لكن الأقدار لم تلبث أن أحوجته ـــ هو لا هم ـــ إلى ذلك الصبر الذى نادى به ، إذ بينما كان منهمكا فى تجاربه مات أحد أولاده ، ثم لحق به الثانى ، فالثالث .. ! .. حتى علق صديق له على تلك الكوارث المتلاحقة قائلا : « إن مضى باستير فى عمله رغم فواجعه فى أبنائه الثلاثة لهو شىء يحتاج إلى نصيب كبير من الشجاعة ! » .. أما باستور فأجاب فى هدوء : « لست أعرف شيئا عما يقال بصدد شجاعتى . كل ما أعرفه هو واجبى ! » .

وعكف فعلا على واجبه ثمانى عشرة ساعة كل يوم ، من الخامسة صباحا إلى الحادية عشرة مساء !.. وكان المجهود أكثر من طاقته فأصيب فجأة بالشلل .. وظل الأطباء أياما يائسين من حياته .. ولكن عقله لم يكف عن نشاطه بينما كان جسمه طريحا ! .. ففى تلك الساعات الصامتة الطويلة ، ساعات مرضه ، اهتدى عقله إلى سر الوباء الغامض : وهو أن عدوى المرض تسرى إلى الديدان عن طريق بويضات الديدان المريضة ، جيلا بعد جيل ، فلو أبيدت البويضات الموبوءة لانقرض الوباء فى خلال أيام ! ..

لكن تجار بذور ديدان القز رأوا فى تلك الإبادة خطرا يهدد تجارتهم ، فشنوا على باستير حملة شعواء من المطاعن والشائعات ، نشرت فى كل

(الكسندر ديماس)

مكان أنباء مكذوبة تزعم أن باستير قد فشل فى مهمته وغادر البلدة مشيعا بوابل من الطوب والأحجار ! .. فلما بلغته هذه الأقاويل اكتفى بأن هز كتفيه فى غير احتفال وهو يكرر كلمته المأثورة : « صبرا ! » .

وكوفىء العالم على صبره الطويل ، فقد جرب الزراع علاجه فأدى إلى نتائج باهرة ، حتى لقد أقاموا تمثالا له فى بلدتهم عرفانا بجميله ! .. أما عزاؤه هو عن مجهوده وتضحياته الشخصية فقد وصفه بأنه : « ذلك الشرف الكبير ، شرف التضحية بالمصلحة الذاتية فى سبيل القضاء على كارثة كانت تهدد وطنى .. » .

اكتشاف نظرية التعقيم

● وكانت تضحيات العالم المجد قد تركت آثارها فى تجاعيد وجهه الشاحب وعينيه المتعبتين .. ورغم الخدمة الحيوية التى أداها لمواطنيه ولجمهور المشتغلين بتربية الديدان وصناعة الحرير ، فإنهم لم يكافئوه المكافأة المادية اللائقة ! .. **فلما حظى بمقابلة الإمبراطور نابوليون الثالث والإمبراطورة أوجينى أبديا له دهشتهما من عجزه عن الإفادة من عمله ماليا وماديا فائدة تناسب النتائج التى أحرزها ، فكان جوابه « إن العالم يفقد منزلته إذا جعل رائده المصلحة الذاتية » .**

● وفى تلك الأثناء نشأت فى أفق كفاح باستير مهمة أخرى خطيرة ، هى الاهتداء إلى سبب وعلاج لفساد وحموضة النبيذ الذى تصدره فرنسا إلى أنحاء العالم ، الأمر الذى كلف المصدرين خسارة

ملايين من الفرنكات فى السنة الواحدة !.. فانتهت أبحاث باستير « رجل الساعة » إلى أن سبب ذلك الفساد والحموضة هو تكون « بكتريا » فى السائل المخمر .. ولكن بقى اكتشاف علاج لتلك « البكتريا » يبيدها دون أن يسبب تلفا للنبيذ أو يغض من جودته .. فجرب باستير إضافة مواد مطهرة مختلفة للسائل ذاته ، ولكن التجربة لم تفض إلى نتيجة .. **وأخيرا اهتدى إلى الكشف الخالد الذى يتبع حتى الآن فى تعقيم الخمور والألبان ومنتجاتها ، والذى سمى باسم مكتشفه** (Pasteurization) . **وطريقته هى تسخين السائل المراد تعقيمه إلى درجة « ٥٥ » سنتجراد** أو « **١٣١** » **فرنهايت** ، وهى الدرجة التى تموت فيها جراثيم البكتريا دون أن تضار خواص السائل ذاتها بأى سوء ..!

نداء الوطن مرة أخرى

● وبينما كان باستير يتأهب لمواصلة أبحاثه ومساعيه فى سبيل تحقيق هدف حياته الأسمى وهو « خدمة الإنسانية بتحسين صحة الإنسان ، وإطالة حياته قدر الإمكان ، وتخفيف آلامه » .. شاءت مطامع قيصر ألمانيا غليوم الأول ومستشاره الدموى بسمارك » أن تشهر ألمانيا حربا عدوانية على جارتها فرنسا ... فلم يكد الجيش البروسى يتوغل فى الأرض الفرنسية حتى وضع باستور نفسه تحت تصرف جيش بلاده ، ولكن إصابته بالشلل حالت دون قبول اشتراكه فى القتال ، فعن له أن يعبر عن احتقاره لألمانيا بطريقة ما ، **وكانت جامعة « بون » الألمانية قد منحته**

الدكتوراه الفخرية فى « الطب » .. فما كان من العالم الساخط إلا أن رد الشهادة الفخرية إلى الجامعة وأردفها بخطاب قال فيه : « يدفعنى ضميرى إلى أن أطلب منكم محو اسمى من سجلات جامعتكم واسترداد شهادتكم ، إظهارا منى لاحتقار عالم فرنسي متواضع (يقصد نفسه) لبربرية وأنانية قيصركم الذى تدفعه مطامعه الإجرامية إلى سفك دماء شعبين عظيمين بلا مبرر ! » .

.. فجاءه من الجامعة الألمانية الرد التالى : « يسر الموقع على هذا ـ عميد كلية الطب بجامعة بون ـ أن يرد التحدى الذى جرؤتم فوجهتموه إلى الشعب الألمانى فى شخص إمبراطوره المقدس غليوم ملك بروسيا .. بأن يعرب لكم عن احتقاره البالغ لكم ـ ملحوظة : ورغبة فى حفظ ملفات الجامعة طاهرة من كل دنس تعيد الكلية إليكم خطابكم بالتالى » .. !

هل من فجيعة رابعة

● وجاءت الأنباء تحمل إلى الفرنسيين عامة ، نذير هزيمة وارتداد الجيش الفرنسى الذى يقوده الجنرال « بورباكى » أمام جحافل الألمان الزاحفة .. وكان هذا النذير العام يحمل فى طياته إلى باستير نذيرا خاصا ، فإن ابنه الرابع ـ الذى نجا من قبل من الموت الذى اختطف إخوته الثلاثة ـ كان من بين جنود ذلك الجيش المدحور !... فلم يجد الأب والأم المنكوبين بدا من استئجار عربة والرحيل بها إلى المناطق القريبة من

ميدان القتال ، بحثا عن فلذة كبديهما ، آملين أن يجداه بين الأحياء ! .. وتابعت العربة سيرها فى الطريق الذى تغمره الثلوج ، والذى عبره الجيش المتقهقر ، مارة بين أشلاء القتلى والجرحى والمعذبين الذين يئنون ألما وجوعا وبردا .. وفى كل مكان كان الأب القلق يسأل الجرحى فى جزع بالغ : « هل رأيتم الملازم باستير ؟ » .. لكن الجواب كان دائما هزة من الرأس ، وعلامة النفى ! .. وكان أقصى ما استطاع معرفته من لسان أحدهم : « أن فرقته المكونة من ألف ومئتى رجل لم يبق منها غير ثلاثمائة رجل من الأحياء ! » .

● وهكذا أخذ أمل الوالدين يخبو ويتبدد تدريجيا .. ولكن أخيرا لاحت لهما بارقة أمل ، كانت عربتهما المحطمة قد بلغت إقليم « بونتارلييه » ، وهناك وجدا جماعة من الجرحى ملتفين حول نار أشعلوها للتدفئة ، فقال لهما أحدهم إنه قد رأى ابنهما بالأمس ، « وكان ما يزال حيا ! » .. ولم يكد يرشدهما إلى الطريق الذى يرجح أنه سلكه حتى ألهبا ظهر الجواد بالسياط ، مندفعين فوق الأرض المغطاة بالجليد صوب قرية « شافوا » .. وفى الطريق ، وعلى كومة من القش لمحا رجلا ممددا فى إعياء وقد غطى جسمه بسترة مهلهلة .. وكان الظلام قد بدأ يخيم على الكون ، فأعياهما أن يتبينا ملامح الرجل .. فقال باستير الأب واجف القلب متسائلا : « هل رأيت يا سيدى الملازم باستير ؟ » .. فرفع الجندى رأسه هاتفا : « أبى ! .. أمى ! » .

وشفى الابن بعد أيام من جراحه .. وعاد إلى فرقته بالجيش ، حيث ظل يقاتل حتى انتهت الحرب .. وخرج منها سليما ، أشبه ما يكون

« بدرهم » عزاء فى حياة أبيه المليئة بالآلام ، والتى توزن فيها المباهج بالدراهم !

اكتشاف نظرية الجرثومة

● استأنف باستير بعد الحرب نشاطه العلمى فى محاربة المرض والوباء . وكانت أبحاثه الخاصة بوباء دود القز و « بكتريا » النبيذ قد هدته إلى حقيقة ثابتة هامة ، هى أن المرض فى الحالين كان منشؤه وجود كائنات حية سامة ضئيلة هى « الجراثيم » ! .. فماذا يمنع من تجربة أثر هذه الجراثيم فى أمراض البشر ؟

وهكذا عكف باستير على تجربتها فى ميدان الجراحة .. **وكانت نسبة الوفيات عقب العمليات الجراحية كبيرة إلى درجة مخيفة ، حتى صار اعتزام إجراء عملية جراحية للشخص بمثابة حكم بإعدامه ! .. فلما طبق باستير نظرية الجراثيم التى اكتشفها فى أبحاثه السابقة على بحثه الجديد خرج بنتيجة مثيرة شرحها فى اجتماع أكاديمية الطب بقوله : « إن الجرح المفتوح معرض لملايين الجراثيم ، التى توجد فى الهواء ، ويد الجراح ، وإسفنجة غسل الجرح ، وأسلحة ومباضع الجراحة ، واللفائف التى يربط بها الجرح .. وغير ذلك .. » .**

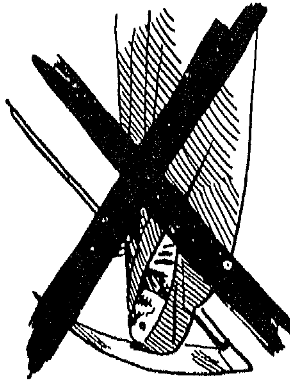
.. فلم يكد أعضاء الأكاديمية يسمعون هذا القول العجيب حتى ابتسموا وهم يهزون رؤوسهم ساخرين .. ثم تابعوا بعد ذلك عملياتهم الجراحية لمرضاهم بطريقتهم القديمة ، مودين بحياة المئات منهم بل

الألوف ! .. و لم يقتنع بنظرية باستير من الأطباء غير طبيب اسكتلندى يدعى « جوزيف ليستر » كان أستاذا للجراحة فى جامعة « إدنبره » .. فقد عمد إلى تطهير أدوات الجراحة وعصائب الجروح بمحلول حامض الكربوليك ، فأحرز بذلك نتائج باهرة ، وانخفضت نسبة وفيات مرضاه من تسعين فى المائة إلى خمسة عشر فى المائة ! .. ورغم ذلك ظل جراحو الأكاديمية الفرنسية على عنادهم البغيض ، يحاربون طريقة ونظرية باستير بكل قواهم ، ويقتلون ألوف المرضى بلا رحمة .. !

القضاء على حمى النفاس

● وفى وجه جميع تلك العراقيل والمثبطات ، تابع باستير كفاحه بلا هوادة ، قائلا لأصدقائه : « لسوف أرغم خصومى على أن يروا صدق نظريتى رغم أنوفهم .. يجب أن يروا ويقتنعوا ! » .

وذات يوم ، بينما كان أحد أساتذة الأكاديمية يلقى محاضرة طبية عن « حمى النفاس » ـــ التى كانت قد قضت فى سنة ١٨٦٤ على أكثر من ثلاثمائة والدة فى مستشفى باريس للولادة وحده ! ـــ انتقل المحاضر إلى شرح آرائه حول سبب تلك الحمى .. وإذا بصوت يرتفع من بين الصفوف صائحا فى جرأة : « هراء .. محض هراء ! .. إن المسؤول الأول عن تفشى وفيات حمى النفاس هو أنتم معشر الأطباء والمولدات . أنتم الذين تنقلون جرثومة المرض من جسم المريضة إلى جسم السليمة .. ! » .



وعندئذ أجابه المحاضر ساخرا : « وهل تستطيع أن تدلنى على « هيئة » جرثومتك التى تزعم وجودها ؟ » .. فنهض باستير من مكانه على الفور وتقدم نحو « السبورة » ثم تناول قطعة من الطباشير وأخذ يرسم بسرعة شكلا أشبه بالسلسلة ، ثم قال : « هاك رسم الجرثومة يا سيدى ! » .

واستحالت المحاضرة إلى هرج ومرج ، فقد انبرى الأطباء القدامى لباستير يسفهون آراءه وينعتونه بأقسى النعوت ، بينما انحاز طلبة الطب وصغار الأطباء إلى صفه ..

وكانت تلك « المعركة » بداية فجر جديد فى عالم الولادة ، إذ لم تكد تعم نظرية باستير فى التعقيم والتطهير حتى كفت مستشفيات الولادة فى باريس عن أن تكون « مقابر للوالدات » !

اكتشاف نظرية التلقيح بالأمصال

● وحفز الانتصار باستير على مواصلة كفاحه الشاق فى خدمة البشرية .. فانبرى لخصومه يفند مزاعمهم ويخطىء آراءهم العتيقة .. وخلال الفترة التالية من مراحل كفاحه توصل إلى اكتشاف نظرية طبية خطيرة لا تقل أهمية ونفعا عن نظرية الجرثومة ، تلك هى نظرية حقن الجسم بكمية مخففة ــ عاجزة عن الإيذاء ــ من جراثيم المرض المعين ، لإعطاء الجسم مناعة ضد ذلك المرض فى صورته العنيفة .. وهى نظرية « المصل » التى أصبحت اليوم من بديهيات الطب وعوامل إنقاذ ملايين الأرواح ..

مصل داء الكلب

● ثم جاءت أحفل مراحل حياة باستير بالكفاح : مرحلة عراكه الجبار ضد داء الكلب ، الذى كانت الكلاب المسعورة تنشره بين الناس على صورة مخيفة ! .. وقد استغرقت تلك المعركة من باستير سنوات كاملة ، عكف فيها على تجارب تلقيح الأرانب بلعاب الكلاب المسعورة ، بتعريض الأرانب للعقر من جانب الكلاب مباشرة .. ولكن حدث أثناء تلك التجارب أن كلبا مصابا من نوع « البولدج » أبى رغم قسوة آلامه

وتساقط الزبد واللعاب من فمه أن يعقر الأرنب الذى أدخل إلى قفصه ! .. فلم يكن بد من استخلاص اللعاب من بين فكى الكلب ثم حقن الأرنب به ! .. وهكذا قيد الكلب فوق إحدى موائد المعمل — **وهنا حانت أروع وأحسم لحظة فى حياة « البطل » باستير ! .. فقد تناول أنبوبة زجاجية مفتوحة من كلا طرفيها ، فوضع طرفها فى فمه ثم انحنى بطرفها الآخر على فم الكلب المسعور ، وأخذ يمتص لعابه المميت بواسطة الأنبوبة ، محاذرا أن يبلغ اللعاب فمه هو ! .. ولكن دون أن يفقد هدوءه ، بل دون أن يبدو عليه أنه « يغازل » الموت أخطر المغازلة !..** حتى جمع من اللعاب الكمية الكافية ، وعندئذ رفع الأنبوبة من فمه والتفت إلى مساعديه قائلا وهو يبتسم : « والآن يا أصدقائى ، فلنتابع التجربة ! » .

تجربة المصل فى الإنسان

● وبعد أشهر من تلك التجربة عقر كلب مسعور صبيا يدعى « جوزيف ميستر » فأخذته أمه إلى باستير .. فحانت له بذلك فرصة تجربة مصله فى الإنسان لأول مرة ، بعد أن أثبتت التجارب نجاحه فى الأرانب . ولكن باستير تردد واجفا : **من أدراه أن كمية الجراثيم التى سيدخلها فى جسم الطفل المصاب لن تزيد إصابته خطورة وعنفا ؟!.. وبأى حق يخاطر بحياة إنسان آخر على هذه الصورة ...؟**

وأخيرا تغلب على تردده وأجرى التجربة !.. ونجحت التجربة ..

فانقضت الواحد والثلاثون يوما دون أن تظهر على المصاب أية أعراض لعودة المرض .. وهكذا شفى الصبى !

وبذلك انتصر باستير على داء الكلب !

أيام المجد والتكريم !

● كانت السنوات التالية لذلك من حياة باستير حافلة بأروع صور التكريم والتمجيد ، فقد انهالت عليه الأوسمة ، والمداليات ، والدبلومات ، وحفلات التكريم .. ومنح وسام الليجيون دونور .. وانتخب عضوا فى الأكاديمية التى طالما حاربه أعضاؤها ! .. **ورغم ذلك فقد ظل كما كان فى بداية حياته متواضعا شديد الحياء ، لا يفكر إلا فى السعى وراء الكشوف الطبية** . ومن طريف ما حدث له فى هذا الشأن أنه بعد أن انتخبته الحكومة الفرنسية كى يمثلها فى المؤتمر الطبى الدولى بلندن ، دخل قاعة المؤتمر « قاعة سان جيمس الكبرى » وسط عاصفة من التصفيق الذى لم يدر بخلده أنه هو المقصود به ، فالتفت إلى من بجواره قائلا : « يظهر أن البرنس أوف ويلز قد وصل .. ليتنى وصلت قبل ذلك ! » .

● ثم عاد إلى باريس ، إلى مواصلة تجاربه فى معهد « باستير » الذى أنشىء باسمه تخليدا لذكراه .. وحين بلغ السبعين من عمره جعلت الحكومة يوم عيد ميلاده عطلة رسمية ، وأقيمت له حفلة تكريم كبرى فى « السوربون » . وعندما وقف ليلقى كلمة شكر للمحتفلين به — القادمين من مختلف أقطار العالم ! — كان بادى الضعف والهزال ، فكلف

ابنه أن يتلو كلمة الشكر نيابة عنه ، وقد جاء فيها : « **سادتى .. إنكم لتسعدوننى بهذا الحفل سعادة لا توصف ، وتغمروننى بأروع شعور يمكن أن يحسه رجل يؤمن إيمانا لا يتزعزع بأن العلم والسلام سوف ينتصران على الجهل والحرب ! .. فلا تسمحوا لساعات الضعف والأسى التى تنتاب الشعوب أن تثبط عزائمكم .. وآمنوا أن الشعوب ستتعلم كيف تتحد ، لا من أجل التدمير ، بل من أجل التعمير .. وأن المستقبل ليس للغزاة الفاتحين ، بل لمحبى الإنسانية ومنقذى بنى البشر !** » .

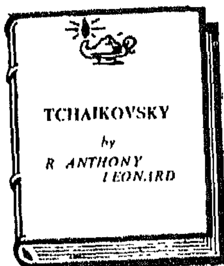
● وكانت رسالة الوداع من باستير .. إلى البشرية ! .. ولكن ، ترى هل بلغت الرسالة مسامع البشرية ورسخت فى وعيها ؟ .. أم نسيتها قبل أن تتحلل عظام صاحبها فى قبره .. ؟

أترك لتاريخ الحربين العالميتين الماضيتين .. أن يتولى الجواب !

صور من شقاء عبقري

تشايكوفسكي

يطرب بموسيقاه الملايين.. وهو يبكي!





.. اجتمعت له كل أسباب السعادة ، لكنه كان شقيا !.. فرقصت على وقع موسيقاه ملايين القلوب ، إلا قلبه هو !.. وأحبته النساء من كل فج وصوب ، لكن نسائم الحب لم تهب يوما على وجدانه ، وعينيه لم تتفتحا قط لامرأة ، ولا أذنيه لهمسات الهوى من الشفاه الناعمة ..!

كان رجلا جذابا ، وسيم الطلعة ، تنافست على تكريمه « دوقات » روسيا وحسان أمريكا .. فلم يعبأ بالشهرة ، بل عمد إلى التنكر فى أسفاره خشية أن يموت من الزحام تحت أقدام المعجبات والمعجبين ..!

وكان رجلا مهذبا ، « جنتلمان » حتى أطراف أصابعه .. يتكلم بطلاقة ، ويشرب الخمر بإفراط ، لكن أحدا لم يره يوما ثملا !.. أعجبت به امرأة من أغنى نساء موسكو ، فتولت إمداده بالمال طيلة ثلاثة عشر عاما ، دون أن تراه أو تلقاه ، أو تطمع فى مقابل ممن ترعاه !.. وبالاختصار فقد قيل عنه : « إذا كان ثمة رجل يستحق أن تحسده ، فهذا الرجل هو تشايكوفسكى ! » .

ورغم ذلك فقد كان شقيا .. يخاف الحب ، ويخاف الصداقة ، ويرتعد فرقا من كل صلة بشرية !.. حيثما حضر حفلة تعزف فيها موسيقاه ، حرص على أن يجلس فى « أعلا التياترو » ، خشية أن يتعرف عليه أحد !.. وفى هذا قال يوما لصديق : « أيدهشك من شخص أحرز النجاح أن يشكو من القدر ؟.. إن النجاح لا يعوض الشخص مطلقا

عن آلامه .. » .

كان يلازمه إحساس غريب ، سواء وهو سائر فى الطريق أو وهو يقود العازفين فى معهد الموسيقى « الكونسرفاتوار » . كان يحس كأن رأسه يوشك أن يسقط بين كتفيه ، نتيجة حالة عصبية مستعصية !.. وكان ينتابه صداع شبه دائم ، وعسر هضم مستمر ، فكان يحمل معه أينما ذهب جرعة من « بيكربونات الصودا » !

بين الهندسة .. والقانون .. والموسيقى !

● ولد « بيتر ايلتش تشايكوفسكى » فى ٧ مايو سنة ١٨٤٠ فى بلدة صغيرة بإقليم « فياتكا » الذى يقع فى الجزء الأوسط من روسيا ، إلى الغرب من جبال الأورال ، حيث كان أبوه يعمل مهندسا فى المناجم .. لكن الأسرة لم تلبث أن انتقلت إلى العاصمة « **سانت بطرسبرج** » — **ليننجراد الآن** .

وكانت حالة الأسرة المالية متقلبة على الدوام ، فقد جمع عائلها — ثم بدد — ثروات لا بأس بها .. أكثر من مرة !.. وكان « بيتر ايلتش » واحدا من ستة أبناء — بنت وخمسة ذكور — وقد أعده أبوه فى البداية كى يخلفه فى مهنة هندسة المناجم . ثم عدل عن ذلك ، حين رأى نفوره منها ، وقرر أن يدخله كلية الحقوق . ورغم نفور الفتى من القانون بدوره ، فإنه أتم دراسته وعين فى وظيفة حكومية بوزارة العدل . لكن ذلك لم ينسه هوايته المفضلة — الموسيقى — فظل يمارسها فى أوقات فراغه ممارسة جدية ، إلى

حد تلقى الدروس الخصوصية فى علم تناسق الألحان ــ « الهارمونى » ــ وإن لم تظهر على الشاب حتى ذلك التاريخ « مخايل النجابة » أو بوادر الموهبة الممتازة فى هذا الفن .

.. حتى وقع « حدث » موسيقى هام فى سانت بطرسبرج سنة ١٨٦٢ ، هو افتتاح معهد للموسيقى كان الأول من نوعه فى روسيا كلها فى ذلك الحين .. فكان بيتر ايلتش تشايكوفسكى من أوائل الطلبة الذين التحقوا بالمعهد الجديد .. وحين تخرج منه بعد سنوات ، بتفوق كبير ، عين « أستاذا » للموسيقى فى المعهد المماثل الذى أنشىء فى العاصمة الثانية ــ موسكو ــ سنة ١٨٦٦ ..

وهكذا استقال الشاب من وظيفته الحكومية بوزارة العدل كى يتسلم مهام منصبه الجديد فى موسكو . وهناك حاول أن يزيد إيراده بإعطاء دروس خصوصية فى الموسيقى لمقدرى موهبته وعارفيه .. دون أن يكف فى الوقت نفسه عن مواصلة دراسة أصول الموسيقى وقواعدها ، أملا فى بلوغ مرحلة النضوج فى فنه . وفى تلك الفترة بدأ ينتج ألحانه الموسيقية الباكرة التى يعتبر أكثرها اليوم قليل الأهمية بالقياس إلى إنتاجه الرئيسى الذى أخرجه للعالم فيما بعد ، والذى خلد اسمه وكتب مجده وشهرته ..

وهكذا لم تمض خمس سنوات حتى كان الموسيقى الشاب قد وضع : ثلاث سيمفونيات ، ومجموعة كبيرة من ألحان الأوبرا ، والأغانى ، ومقطوعات البيانو القصيرة .. وقد كلفه كل ذلك ليالى طويلة من الأرق ، انتهت بانهيار عصبى شديد .. لكن مجهوده هذا كان فى الوقت

ذاته بمثابة « حجر الأساس » لشهرته التى سنرى كيف ذاعت بعد ذلك فى كل مكان ، سواء داخل روسيا أو خارجها ..!

وحين بلغ تشايكوفسكى الرابعة والثلاثين وضع لحنا طويلا للبيانو « كونشرتو » ، فدعا صديقه صاحب المعهد « نيكولا روبنشتاين » — الذى كان يعد وقتئذ من أشهر عازفى البيانو فى أوربا — كى يقضى ليلة عيد الميلاد (سنة ١٨٧٤) فى الاستماع إلى لحنه الجديد ، تمهيدا لإبداء رأيه فيه .. فلما انتهى صاحبنا من العزف كان رأى العازف الشهير مخيبا لآمال تشايكوفسكى !.. لكن هذا أبى أن يأخذ برأى « أستاذه » فيجرى فى اللحن أدنى تعديل أو تغيير ، وإنما عرضه على ناقد آخر رأى أن يجرى على اللحن « تجربة عملية » : فأخذه معه فى رحلته إلى أمريكا ، حيث عزفه أمام الجمهور لأول مرة فى مدينة بوسطن يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٧٥ .. فقوبل بعاصفة مدوية من التصفيق واستعادته الجماهير إياه مرارا .. واليوم ، يعتبر ذلك اللحن قاسما مشتركا لا يخلو منه برنامج أية حفلة ممتازة من حفلات البيانو المنفرد !

السر الرهيب !

● وإن من يسمع اللحن المذكور بغير أن يعرف شيئا عن واضعه ، لخليق بأن يعتنق فكرة خاطئة عن طبيعة الرجل .. فهو لحن عنيف ، يفيض قوة وحيوية عاطفية ، الأمر الذى يوحى « برجولة » مؤلفه العارمة !.. فى حين كان الواقع هو العكس تماما ، **فإن تشايكوفسكى لم يكن خجولا**

(الكسندر ديماس)

ورقيقا إلى درجة غير طبيعية ، فحسب .. وإنما كان فوق ذلك مصابا بالشذوذ الجنسي !.. ذلك كان سره الرهيب الذى أشقاه ، والذى كتمه عارفوه عن العالم زمنا .. لكنه اليوم لم يعد سرا مجهولا ، بل حقيقة معترفا بها من جميع مؤرخيه ..!

وقد كان ذلك الشذوذ خليقا بأن يهمل شأنه عند تأريخ سيرة صاحبه وموهبته الفنية، لولا أن تصرفاته هو حيال ذلك الأمر، وفزعه الدائم من أن يكتشف الناس سره، قد ألقى ظله القاتم على حياته كلها، بل وعلى فنه!

وفى العصر الذى عاش فيه تشايكوفسكى كان مثل هذا الشذوذ يحاط ـــ حتى فى دراسة الطب له ـــ بنطاق صارم من السرية والتكتم ؛ بحيث لا يكاد يشار إليه فى حديث أو يهمس به الناس فى أى مجتمع أخلاقى .. وإذا تهامسوا به فعلوا ذلك فى ذعر ، أو على سبيل المزاح !.. وقد كانت إصابة تشايكوفسكى بهذا « المرض » موضعا لسريان الشائعات بين الكثيرين من أصدقائه فى موسكو ، ومن ثم كان المسكين يعيش فى حالة رعب قاتل دائم ، خشية أن تتعدى الشائعات ذلك النطاق إلى محيط أوسع ، فتؤثر فى سمعته بين عشاق موسيقاه .. وتصبح « فضيحة دولية » !

وزاد من إرهاق هذا السر لأعصاب الفنان الكبير أنه لم يجرؤ على الإفضاء بدخيلة نفسه لأحد ، إلا لأخيه الأصغر « موديست » ـــ الذى صار فيما بعد مؤرخه ـــ وكان هو بدوره مصابا بنفس الشذوذ .. وقد أشار الأخوان أكثر من مرة ، فى رسائلهما المتبادلة ، إلى هذا « السيف » المصلت فوق رأسيهما !

امرأتان فى حياته

● ولكن .. يشاء القدر الساخر أن تلعب الدور الرئيسى فى حياة هذا الرجل الذى لم يكن للنساء وزن فى اعتباره .. امرأتان ! : إحداهما أرملة غنية كانت تدعى « ناديجافون ميك » .. والأخرى شابة حسناء أقدم الفنان على حماقته الكبرى حين .. تزوجها !.. وقد كانت صلات تشايكوفسكى بهاتين المرأتين من أغرب الصلات التى يرتبط بها أى رجل ، عادى أو شاذ ..!

أما الأولى ـــ مدام فون ميك ـــ فكانت أرملة مهندس مشهور ، له فى تاريخ إنشاء السكك الحديدية فى روسيا سجل حافل . وقد ترك لها عند موته ثروة ضخمة ، من بينها قصر كبير فى موسكو ، وضيعة شاسعة فى الريف ، وخطان حديديان !.. وكانت الزوجة فى ذلك الوقت تناهز الأربعين ، امرأة أوتوقراطية المولد ، عاشت بعد وفاة زوجها أشبه « بالناسكة » ، فى قصرها بموسكو ، تسيطر على حياتها هوايتان : أطفالها ـــ وكان لها منهم لا أقل من اثنى عشر ! ـــ ثم الموسيقى ... وكانت تغدق رعايتها الكريمة على معهد الموسيقى ، وتستقبل صاحبه « روبنشتاين » فى بيتها مرحبة ، على قلة من كانت تستقبل من الرجال .. **وعن طريقه تعرفت إلى موسيقى تشايكوفسكى ، وأعجبت بها .. وسرعان ما تطور إعجابها إلى عاطفة ملتهبة ، فبدأت تراسل الفنان ويراسلها .. صارا**

يكتبان كلاهما إلى الآخر بانتظام وكثرة ـــ وفى بعض الأحيان يوميا ! ـــ طيلة أربعة عشر عامًا (من عام ١٨٧٦ إلى عام ١٨٩٠) .. وخلال تلك المدة كلها لم يتقابلا قط !

وقد نشر جانب كبير من تلك الرسائل باللغة الإنجليزية حديثا فى كتاب عنوانه « الصديق المحبوب » ، وضعته باربره فون ميك أرملة حفيد صاحبة الرسائل ، وكان الحفيد قد احتفظ بها حتى صودرت مع بقية أملاك الأسرة عند نشوب الثورة الروسية سنة ١٩١٧ ، ولم يكشف عنها الستار إلا حين نشرت الحكومة السوفيتية محتوياتها فى سنة ١٩٣٥ .

● ورسائل تشايكوفسكى إلى صديقته المحبوبة هى صورة دقيقة لخلق الرجل ، فى كل شىء عدا أمر واحد : شذوذه الجنسى !.. الذى لم يشر إليه فيها بحرف واحد ، والذى يبدو أن المرأة لم تعرف بأمره قط !.. أما فيما عدا ذلك فقد فتح الفنان لصديقته قلبه ونفسه على مصراعيهما ، فسرد لها فى تلك المئات من الرسائل أفراحه وأحزانه .. وآلامه الحقيقية والوهمية .. وأسرار إنتاجه الموسيقى وحياته الفنية الخالقة .. إلخ .

ولم يمض على صلة تشايكوفسكى بمدام فون ميك وقت قصير حتى صارت راعية حياته وليست مستودع أسراره فقط .. **فقد رصدت له راتبا شهريا سخيا من مالها الخاص صارت ترسله إليه بانتظام ، كما أوفدته فى رحلات عديدة إلى الخارج .. وفتحت له خزانتها فأغرقته بالهدايا فى كل مناسبة طلب فيها عونها . وبالاختصار فإنها صارت سند حياته ، ودعامتها الرئيسية .. وبلغ من اعتماده على رعايتها وعطفها أنه كان يقاسى عذابا مروعا إذا انقضى أسبوع لم تصل إليه خلاله**

رسالة منها ..!

والواقع أن شدة تعلق مدام فون ميك بموسيقى تشايكوفسكى كانت من أعراض حالة مرضية بها ، فمثل كثيرات من النساء ذوات الإرادة الحديدية كانت هى هدفا لكثير من الدوافع الغريبة المتعارضة ، فكانت الموسيقى تؤثر فيها تأثيرا عميقا .. ولا سيما موسيقى تشايكوفسكى ، التى كانت تخلفها مهدمة الأعصاب !

تمقت الصلة الجنسية !

● وكانت هى التى فرضت عليه شرط أن لا يلتقيا قط !.. ولئن لم يهتد المؤرخون إلى التعليل القاطع لذلك الشرط الشاذ ، فإن أغلب الظن أن المرأة خشيت أن يبدد تشايكوفسكى الرجل سحر أوهامها وتصوراتها التى رسمتها فى خيالها موسيقاه !.. كما لعلها خشيت على نفسها من التورط معه فى صلات جنسية ، الأمر الذى كانت زاهدة فيه من كثرة ما عانت من متاعب الحمل والولادة .. اثنتى عشرة مرة !.. ولقد صورت نفورها هذا من العلاقة الزوجية بقولها فى إحدى رسائلها إلى تشايكوفسكى : « **إنه لأمر يدعو إلى الحسرة حقا أن الإنسان لا يستطيع أن ينجب نسلا بالطرق الصناعية ، كما ينجب السمك .. فى حين أنه لو أصبح ذلك فى حيز الأمكان لما احتاج الناس إلى الزواج ، ولاستراحوا بذلك راحة عظمى !** » .. وهو قول لا يصدر إلا من امرأة تنظر إلى العلاقات الزوجية والصلات الجنسية نظرتها إلى شىء بغيض تمقته !.. ولما كانت الأرملة فى

حاجة إلى متنفس آخر لعواطفها وأشواقها ، فقد وجدت هذا المتنفس فى تلك المغامرة الغرامية الشاذة الأطوار !

أما بالنسبة لتشايكوفسكى نفسه ، فكل القرائن تدل على أن ذلك الشرط الذى فرضته عليه صديقته — شرط عدم اللقاء — قد نزل على قلبه بردا وسلاما !.. فهو قد أدرك ولا ريب أن بين إعجاب هذه الأرملة الغنية بموسيقاه ، وبين إعجابها « الجنسى » به كرجل ، خطوة واحدة قصيرة وسهلة !.. الأمر الذى كان خليقا أن يوقعه فى مأزق رهيب ، قدر التعس مدى فظاعته .. مقدما !

على أنه إذا كان قد نجا من هذا المأزق فى علاقته مع مدام فون ميك ، فإنه لم ينج منه فى علاقته مع « أنتونينا مليوكوف » !

وهذا يقودنا إلى قصة المرأة الأخرى فى حياته :

التلميذة التى وقعت فى هواه !

● فى ربيع سنة ١٨٧٧ كان تشايكوفسكى ما يزال فى نظر جميع فتيات معهد الموسيقى لغزا عصيا على الحل !.. فقد كن موضع إعجاب ومغازلة جميع مدرسيهن ، عداه هو .. الذى لم يكن يستجيب لمفاتنهن ، بل كان فى تصرفاته معهن مثالا للبرود ، والأرستقراطية ، والعزلة !.. وقد حدث أن التقت به فى المعهد فى الأشهر الأولى من تلك السنة فتاة جذابة وجريئة تدعى « أنتونينا » ، فأعجبت به — وإن لم يولها هو التفاتا ! — ومن ثم راحت تمطره بوابل من الرسائل اليائسة التى تفيض جوى وتوسلا

ورجاء ، مناشدة إياه أن يزورها فى بيتها ، لأنها تحبه حبا جنونيا .. وتبغى الزواج منه !.. وهددته بالانتحار إذا لم يفعل !

واستجاب تشايكوفسكى لتوسلات تلميذته الولهى ، ضعفا منه ، فذهب .. ورأى .. وانتصرت هى !.. فقد أفلحت فى إقناعه بالزواج منها ، ولكن بعد أن أنذرها فى صراحة بأنه لا يحبها .. وأنه فقير .. ميال إلى العزلة .. عصبى بطبعه .. ومن العسير معاشرته .. الخ .. ولم يدرك المسكين أن الفتاة مصابة بلوثة فى عقلها تصور لها أن جميع الرجال متدلهون فى حبها !

وعلى أثر عقد « خطبتهما » كتب تشايكوفسكى إلى أخيه يقول : « فى النصف الأخير من شهر مايو وجدت نفسى فجأة ، على غير انتظار منى ، خطيبا لها ! » .. **وقد علل تشايكوفسكى ـــ فيما بعد ـــ قبوله الزواج من الفتاة بخوفه من أن تنفذ تهديدها بالانتحار إذا لم يفعل !.. لكن الواقع أن المسكين كان مدفوعا إلى ذلك القبول بدافع آخر شخصى لم يصرح به : هو خوفه من أن ينكشف شذوذه الجنسى للناس .. وشوقه إلى الزواج ولو دفعا للشبهات ونفيا للظنون .. أو ذرا للرماد فى العيون !**

وكان الشقى قد حاول أن يلوذ من قبل بهذا الحصن الواقى من الشكوك ، لكنه فشل .. ففى سنة ١٨٦٨ ـــ وكان فى الثامنة والعشرين ـــ التقى بمغنية فى الأوبرا تدعى « ديزيريه أرتو » ، فأسره جمالها .. وكتب إلى أبيه يعلن إليه اعتزامه الزواج منها .. ولكن فجأة هجرته المغنية وأحبت رجلا آخر ..!

ولعل تشايكوفسكى قد أحس نحو « ديزيريه أرتو » بقدر من الحب ــ بالإضافة إلى هدفه الآخر الرئيسي الدفين ! ــ أما فى المرة الثانية فالمؤكد أنه لم يشعر بأدنى ميل أو انعطاف نحو « أنتونينا ميليكوف » هذه ، وإن أحس على أثر إتمام زواجه منها بغير قليل من الارتياح .. فقد أفلح على الأقل فى أن يخرس ألسنة الشائعات .. ولو إلى حين !

ليلة الزفاف ..!

● وحانت ليلة الزفاف ــ المفجعة ــ فى ١٨ يوليو سنة ١٨٧٧ ــ فاستقل العروسان القطار من موسكو إلى حيث اعتزما قضاء « شهر العسل » !.. فأحس تشايكوفسكى وهو جالس بجوار عروسه أنها مخلوقة بغيضة إلى أقصى حد ، حتى لقد خيل إليه أنه يوشك أن يفقد عقله !.. وفى هذا يقول فى مذكراته : « عندما تحرك بنا القطار أحسست بميل إلى أن أصرخ مستغيثا ! » .. لكنه حاول تهدئة ثائرته جهد طاقته ، معللا نفسه بأنه إذا كان قد أخطأ فى زواجه ، فإن زوجته ــ على الأقل ــ تكن له حبا قويا لا ينتظر معه أن تفعل شيئا ينغص عيشه .. وهكذا أجبر نفسه على مجاذبتها أطراف الحديث ، بالرغم من رغبته فى الانزواء فى طرف العربة وحيدا مع مخاوفه ..!

وابتسمت أنتونينا فى شجاعة ، وهى تجهل العاصفة العاتية التى تجتاح أعماقه .. وأخيرا اضطر إلى أن يصارحها بالحقيقة قائلا : « إن من واجبى ألا أضللك ، فلا تنتظرى من جانبى أكثر من الحب « الأخوى ! » ..

ذلك أنه قد أحس بنفور جسمانى منها ، كما من جميع النساء .. وعبثا حاول مكافحة طبيعته تلك بكل قواه .. فإنه خسر المعركة !



أما قصة الثلاثة الأشهر التالية فهى قصة الجحيم بعينه .. قصة العذاب النفسى المرير الذى لا يستطيع غير قلم « دستويفسكى » أن يصوره !.. فلكى « يتجنب » زوجته ، صار تشايكوفسكى يضطر إلى مغادرة بيته فى الليل ، فيروح يذرع شوارع موسكو .. ساعات طويلة .. حتى يعجز عن مواصلة السير ، فيعود أدراجه وقد هده التعب .. « ليحاول » النوم !

يشكو الزوجة إلى الصديقة !

● ولم يكن تشايكوفسكى قد كتب إلى صديقته مدام فون ميك حرفا عن مشروع زواجه ، إلى ما قبل الزفاف بيوم واحد ! .. فلما علمت المرأة بالأمر كاد يقتلها الشجن ، لكنها أخفت عواطفها .. بل جاءت

ردودها على خطاباته إليها آية من آيات اللباقة والعطف ... لاسيما حين صارحها بفشله فى زواجه ونفوره من زوجته — وإن لم يصارحها بسبب هذا النفور ! — ولنقرأ ما يقوله لها فى إحدى رسائله : « ناديجا .. إليك صورة للعذاب الذى أقاسيه منذ الثامن عشر من شهر يوليو : يوم زواجى ! » .. ثم يصف لها شعور البغض والكراهية الذى توحى به إليه زوجته .. وكيف اضطره هذا الشعور إلى مغادرة موسكو بعد أسبوع واحد من الزواج ، متعللا بسوء صحته وحاجته إلى تغيير الهواء !.. « واستمرت حياتى الرهيبة على هذا المنوال أياما أخرى .. كنت أشرب الخمر بلا حساب ، ولا أقوى على رؤية وجه أنتونينا . إنها توحى إلى بالانقباض والكآبة !.. يا للمسكينة ، إنها قد فعلت كل ما فى طاقة البشر كى تسعدنى .. ورغم ذلك فإنى لا أستطيع أن أحس نحوها بغير الأشمئزاز ! » .

الفزع من الفضيحة !

وأخذت تدوى فى أذنيه صرخة داخلية مروعة : « إننى شاذ ! » .. وعبثا حاول التظاهر بأنه مثل كل الرجال .. فما جدوى هذا التظاهر ، وموسكو بأسرها لن تلبث أن تعرف الحقيقة ، وتتهامس بها ؟!

وإن زوجته لتجلس فى مواجهته باسمة ، تفعل كل ما هو خليق بأن يريحه ويجلب له السعادة : تصب له الشاى ، وتحل له رباط حذائه ، وتحنو عليه .. لكنه برغم ذلك يمقتها مقتا مدمرا مجنونا !.. حتى ليود لو أخذ

عنقها الصغير بين قبضتيه وقضمه ، كى لا يعود أحد يسأله أينما ذهب : « كيف حال أنتونينا ، زوجتك الحسناء الصغيرة ؟.. ولماذا أنت تذرع الشوارع فى الليل وحيدا ؟.. لم لا تخرج برفقتها لزيارة بيوت أصدقائك ؟ » .. الخ .. الخ .

يا للسماء !.. إنه لعاجز عن احتمال ذلك بعد الآن ؟

ويندفع يائسا إلى الطريق كى يذرع مرة أخرى شوارع المدينة المظلمة الساكنة ، وقد رفع ياقة معطفه على رقبته ، وغطى بحافة قبعته عينيه !..

وفى إحدى هذه الجولات الليلية وجد نفسه ذات مرة على ضفة النهر .. فهبط إلى الماء الذى كان باردا كالثلج .. حتى غطى الماء صدره .. وبقى على هذا الوضع ، نهبا للصقيع القارس ، أقصى مدة استطاع احتمالها .. آملا أن يصاب من جراء ذلك بالتهاب رئوى حاد يقضى عليه ، ويجنبه عار ومذلة الانتحار عامدا !

ولم تمض أربع وعشرون ساعة حتى خف أصدقاؤه قلقين إلى جوار فراشه ، حيث رقد محموما يهذى .. ولم يكن لدى الأطباء أكثر من أمل واه فى شفائه !.. بل لقد خشوا — فيما لو شفى — أن يصاب بالجنون ، إلا إذا غادر موسكو من فوره إلى جهة نائية كى ينال قسطا طويلا من الراحة ، بعيدا عن الناس !.. ثم يهز الأطباء رؤوسهم قائلين ، فى لهجة العليمين ببواطن الأمور : « لقد أجهد نفسه فى العمل أكثر من اللازم » .. أما إخوته فكانوا يهزون رؤوسهم ساخرين ، ويضغطون على شفاههم فى تحسر .. فإنهم كانوا يعرفون جلية الأمر !

وأخيرا شفى تشايكوفسكى .. ففر من موسكو إلى سانت

بطرسبرج ، لاجئا إلى أخيه الأكبر « أناتول » ، لكنه أصيب هناك بانهيار عصبى كامل .. وكان علاجه الحقيقى يستلزم أمرا رئيسيا لا بد منه : أن لا يرى زوجته مرة أخرى !.. فاضطر أناتول إلى إرسالها مع أمها إلى أوديسا ، ثم حمل أخاه المحطم إلى سويسرا ، إلى مصحة للناقهين تقع على ضفاف بحيرة جنيف .

السيمفونية الرابعة

.. وهناك تلقى المريض من صديقته الأرملة الثرية مدام فون ميك رسالة تشجيع تقول له فيها : « بمعونة الله سوف تشفى يا بيتر .. سوف تعود الموسيقى فتملأ حياتك ، وعندئذ تستأنف عملك فى سيمفونيتنا القادمة .. سيمفونيتك أنت وأنا ! » .

وحدث ما توقعته ، فكتب إليها فى نوبة عرفان بالجميل ينبئها بأنه قرر أن تكون عبارة إهداء السيمفونية موجهة إليها ! .. وحين أتمها وأطلق عليها « السيمفونية الرابعة » كتب إلى مدام فون ميك يقول : « عزيزتى الغالية ناديجا ... لعلنى مخطىء فى ظنى ، ولكنى أعتقد أن هذه السيمفونية شىء فوق العادة ، بل لعلها أحسن ما وضعت من موسيقى حتى الآن .. » .

وأرسلت له ناديجا مبلغا من المال كى ينفق منه على طبع نوتة السيمفونية ، آملة أن ترى شهرتها تغمر أوربا بأسرها — رغم أنها لم تكن قد سمعت أو اطلعت على أى جزء منها ! — وكيف لا ؟ ألم يضعها

« بيتر » ؟.. إنها إذن لا يمكن أن تكون غير لحن من السماء !

هكذا كان مبلغ إيمان ناديجا فون ميك بصديقها العبقرى تشايكوفسكى .. أما هو فكان أشد منها قلقا على مصير السيمفونية الرابعة .. « ترى ماذا يكون من أمرها ؟.. هل تعيش طويلا بعد أن يختفى مؤلفها من على ظهر الأرض ؟ إنى لأتساءل ! » .

البشرى ..!

وحين عزفت السيمفونية أمام الجماهير فى موسكو لأول مرة كان صاحبها فى مدينة فلورنسا ــ بإيطاليا ــ فكتبت إليه صديقته تبشره بأن اللحن قد استقبل استقبالا حسنا !.. لكنه لم يتلق حرفا بشأن ذلك من زملائه فى معهد الموسيقى !.. والفنان حين يضع روحه كلها فى عمل فنى ، ينتظر نوعا من « الاعتراف » بمجهوده ، إن لم يكن من الثناء والمديح .. فلما ضن النقاد عليه بهذا أو ذاك كتب إلى راعية حياته خطابا جاء فيه : « إننى لفى أشد حالات الأسى والشجن ، بل والدهشة ، إزاء الصمت المطبق غير المفهوم من جانب الجميع نحو السيمفونية التى توقعت لها أن تثير على الأقل « اهتمام » عشاق موسيقاى ، إن لم تحرك أعماق نفوسهم ! » .

● وأخيرا وصل إليه خطاب من زميل له من مدرسى المعهد ، كله نقد وطعن فى السيمفونية .. فرد عليه تشايكوفسكى بدفاع حار عنها قال فيه : « **ليس فى اللحن مقطع واحد لم ينبع من أعماق إحساسى ،**

ولا « نوتة » واحدة إلا وهى صدى دقيق مخلص لطبيعتى ذاتها .. أما ضجيج البوق الذى تعيبه على فى مطلع السيمفونية فهو رمز للقدر الأعمى الجبار الذى يعترض تحقيق أعذب آمالنا .. إنه سيف « ديموكليس » المصلت فوق رؤوسنا ، والذى نقاسى منه عذاب الشهداء .. حتى يغلبنا اليأس فنحاول الفرار من الحقيقة إلى الأوهام والأحلام .. لكننا لا نكاد نجد سعادتنا المنشودة فى عالم الأحلام حتى نصحو من غمرتها مرة أخرى على نداء القدر ، كى نواجه الواقع ! » .

وهكذا كانت حياة تشايكوفسكى فى حقيقة الأمر : أرجوحة بين الوهم والواقع ، بين السعادة واليأس ... السعادة حين ينفرد بموسيقاه ، واليأس — إلى حد التفكير فى الانتحار — حين يضطر إلى مواجهة الدنيا ، وإلى التظاهر بأنه رجل ، بينما هو يحمل نفسية امرأة !

صداقة العمر

.. واستمرت فى غضون ذلك صلة الصداقة المثالية الشاذة بين تشايكوفسكى وبين مدام فون ميك ، المرأة التى لم تعرف عن شكله ومظهره غير ما بدا لها من صوره التى أرسلها إليها .. فى الوقت الذى عرفت فيه أدق خلجات فكره .. كانت قد استحوذت على ثقته الكاملة ، بفضل عطفها الأنثوى ولباقتها .. فلم تك تستطلع من أمره أكثر مما يروقه أن يطلعها .. وفى ساعات يأسه كانت تواسيه فى رسائلها ، وتستمع إلى شكاته ، وتمده بالشجاعة على مواصلة الكفاح .. وما كانت امرأة غيرها

لتستطيع أن تجرى إعانة مالية على رجل مثله مرهف الإحساس بالغ الاعتداد بكرامته !.. فقد صاغت الأمر له فى قالب لبق قائلة إنها تعطيه أجرا مقابل موسيقاه التى يضعها من أجلها !.. ولما كان هو كريما مع الناس فى معاملاته المالية فقد تقبل منها هذا الكرم دون ما حرج ، بمثل السهولة التى تقبل بها شذوذ العلاقة التى أنشأتها معه ، والتى كانت أشبه بعلاقة أم مع ابنها .. مع استبدال رابطة الدم برابطة الموسيقى !.. ومن أجل دوام هذه الرابطة فى نطاقها الروحى ، دون أن يفسدها الواقع والمادية ، فرضت عليه أن لا يراها أو تراه مطلقا !.. **وحين أزمعت القيام برحلة إلى الخارج كتبت تطلب إليه أن يزور بيتها فى غيبتها كى يتصفح الكتب التى تقرأها ويرى اللوحات الزيتية التى تزين جدرانها ، وكى تحس عند عودتها بالجو الذى أسبغته على الدار شخصيته !**

بل إنها فى شتاء سنة ١٨٧٨ طلبت منه أغرب من ذاك الطلب .. أرسلت إليه من مدينة فلورنسا ــ حيث كانت تقضى فترة من الزمن ــ ترجوه أن يحضر إلى تلك المدينة كى يقيم فى عش صغير هيأته له على بعد بضعة أميال من حيث تقيم هى .. وفعلا لبى دعوتها ، وانتظمت بينهما سلسلة من الرسائل عبر المسافة الضئيلة التى تفصل بينهما ..!

تتفانى فى إسعاده !

● وفى مرة أخرى كان ضيفا عليها فى قصرها الصيفى بأوكرانيا ــ أثناء غيبتها ــ فكان يصدر أوامره إلى خدمها ، ويستخدم فى تنقلاته عربتها التى تركتها تحت تصرفه ، ويمارس رياضة السير على قدميه كل يوم

إلى دار البريد ، فى القرية القريبة ، مارا بالبيت الذى تقطنه !.. فيسمع أصوات أطفالها .. ويتلقى منها كل حين رسائل الاستفسار عما إذا كان جناحه الخاص دافئا إلى الدرجة الكافية ؟ وهل لديه كفايته من الكتب والثياب ؟ إلخ .. وهكذا لم يكن لديها شغل شاغل غير التفكير فى توفير وسائل الراحة له ..

ورغم ذلك لم يلتقيا قطّ !



أقصى ما ناله منها أنه كان يراها أحيانا فى المسرح عن بعد .. فيعرفها ، من صورتها ! .. كان يجلس فى مقصورته فيضع على عينه منظار المسرح المكبر ، ليتأمل المرأة ذات القوام الفارع والرداء الأسود ، التى تجلس فى أحد المقاعد الأمامية وإلى جوارها ابنتها الأثيرة عندها « ميلوشكا » .. وقد كاد يقع فى هوى الفتاة الصغيرة ، فكتب إلى أمها يقول « أخبرى ميلوشكا أن لها معجبا شديد التحمس لها ! » .

وفى ساعة معينة من بعد ظهر كل يوم ، كانت الأرملة وأسرتها يقومون بنزهتهم على الأقدام ، مارين بمقر تشايكوفسكى ، فكان هو يرقبهم من وراء خصاص نافذته بعينين قلقتين ، خشية أن يرفعوا أبصارهم فيلمحوا ظله .. !

صخرة نجاحه !

وأبدا لم تحاول مدام فون ميك أن تتطفل على حياة صديقها الخاصة ، بل كانت تعتبرها شبه مقدسة !.. وذات مرة ألمعت فى رسالة إلى أن ابنتها ميلوشكا تتحرق شوقا وفضولا إلى رؤية ذلك « العم بيتر » الذى لا تفتأ أمها تتحدث عنه !.. لكن تشايكوفسكى ، رغم حيائه ، كان حازما فى رده عليها .. فقال : « اغفرى لى يا صديقتى العزيزة واضحكى على شذوذ تصرفى ، لكننى لن أدعو ميلوشكا لزيارتى !.. إن صلتى بك هى مصدر سعادتى العظمى ، والصخرة التى يرتكز عليها توفيقى فى حياتى .. ولست أريد لهذه الصلة أن تنحرف أدنى انحراف ! » .

● لكن المحظور وقع .. ذات يوم !

كان الصديقان قد اتفقا على تنظيم أوقات خروج كل منهما بحيث يبقى الواحد إذا خرج الآخر ، كى لا يلتقيا فى طريق !.. لكن نظامهما اختل ذات يوم فخرجا فى وقت واحد ... وصادف أن تقابلت عربتاهما فى منتصف الطريق ، فلما تحاذتا لم يملك تشايكوفسكى عينيه من الالتقاء بعينى مدام فون ميك .. وحدق كلاهما فى صاحبه بضع ثوان ، ثم أحنى

هو رأسه دون أن ينطق بكلمة .. فردت له هى التحية بنفس الطريقة ، وأمرت حوذيها بمواصلة السير !.. وحين بلغ تشايكوفسكى بيته كتب إليها : « اغفرى لى حماقة عدم مبالاتى يا ناديجا .. » فردت عليه مبدية ابتهاجها باللقاء العابر : « فلقد أقنعنى بحقيقة وجودك بالقرب من بيتى ! » .

ومرة أخرى .. كانت مدام فون ميك تحتفل بعيد أحد أطفالها ، فأقامت لهذا الغرض مأدبة شاى فى الحديقة .. ورغم أنها لم تدع صديقها الموسيقى إلى الحفلة ، فإنه قد تسلل إلى حيث اختبأ خلف إحدى الأشجار ووقف يرقب موكب المرح ، دون أن يلحظه أحد !

حب سماوى ..!

● وعلى أثر انتهاء ذلك الصيف الذى قرب بينهما إلى هذا الحد أرسل تشايكوفسكى إلى صديقته نوتة إحدى مقطوعات سيمفونيته الرابعة ، ولم تكن قد سمعتها تعزف غير مرة أو اثنتين ، فوجدت فى ذلك فرصتها لاستيعاب موسيقاها عن كثب .. **وبقيت ثمان وأربعين ساعة لا تأكل أو تنام ، قانعة بأن تتذوق روعة اللحن فى كامل عظمته .. وعلى أثر ذلك كتبت إلى صديقها خطابا ضمنته اعترافا كاملا بمشاعرها : « أحبك أكثر من أى مخلوق آخر .. وأقدرك فوق تقديرى لأى شىء فى الدنيا** .. فإذا ضايقتك هذه الحقيقة فاغفرلى أنى صارحتك بها .. واعلم أننى معذورة ، وعذرى هو سيمفونيتك ! » .

• فى تلك الأثناء كان تشايكوفسكى يعيش منفصلا عن زوجته ، لكنه لم يكن قد تحرر من قيود الزواج ، فقد رفضت « أنتونينا » أن تطلقه .. بل وراحت تلاحقه بطلب المال كل حين ، الأمر الذى صار يضرم فى دمه أحيانا نار ثورة مدمرة ، فكتب مرة يقول : « **لقد أدركت الآن كيف يمكن لإنسان ليس شريرا بطبعه أن يصبح قاتلا !** » .

وعاودته من جديد أعراضه العصبية القديمة : الأرق ، ونقص الوزن ، وتقلصات القلب ، وكابوس الليل .. فلم يكن يستريح منها — مؤقتا — إلا بكأس من الخمر القوية .. وهكذا صار يشرب الخمر كل ليلة ، فيحس فى مراحل تملؤه الأولى بنشوة بهيجة ، لكن تأثير الخمر لا يلبث أن يزول بعد فترة قصيرة فيعود إلى أساه .. وموسيقاه !.. أو على حد تعبيره : « إن شعورى بأنى لا أصلح لشىء ، وأن إنتاجى الموسيقى وحده هو الذى يستر نقائصى ويرفعنى إلى مرتبة الرجولة ، بمعناها الحقيقى ، قد بدأ يطغى على حواسى ويعذبنى .. والسبيل الوحيد للفرار من هذه الشكوك المضنية والسياط النفسية هو أن أشرع فى الانشغال بعمل جديد .. هكذا أنا أدور فى حلقة مفرغة ، أو شبه دوامة .. أكافح بأعنف ما أستطيع .. ولا ينقذنى من نفسى سوى عملى .. وإنى لأعمل » .

يصعد سلم المجد قفزا !

● عام ١٨٨٠ ... وقد بلغ الموسيقى ذو الوجه الصبوح والقلب الحزين سن الأربعين ، وشهرته فى ازدياد .. ومجده فى صعود !.. ورغم أن المال قد بدأ يتدفق عليه من مصادر أخرى غير ناديجا فون ميك ، فإنه لم يتغير .. بل صار يمد يد العون إلى الموسيقيين المعوزين فى موسكو بسخاء عجيب . وحين سافر فى رحلة إلى باريس بدا كأنه قد بدد همومه مع الريح ، فكتب إلى إخوته يقول : « إنكم لا ريب تضحكون لو رأيتمونى أذرع الشوارع مثل الديك مرتديا سترتى الجديدة وقبعتى الفاخرة .. إن نزوة طارئة للأناقة قد تملكتنى ، حتى لأفكر جادا فى أن أشترى لنفسى سلسلة ذهبية ومشبك ! إن النقود تطير .. وقريبا لن يبقى فى جيبى فرنك واحد » ... وبعد أيام غادر باريس إلى برلين ، وهناك كتب إلى صديقته فون ميك : « لقد رتبت ميزانيتى فى باريس ببراعة ودقة ، إلى حد أنى بعد أن دفعت فاتورة الفندق لم يبق لى ما يكفى كى أعود إلى روسيا ! فلم أكد أصل إلى برلين حتى وجدت نفسى عاجزًا عن مواصلة السفر . فأبرقت إلى ناشرى كى يرسل إلى بطريق البرق نقودا مما لى فى ذمته .. ولست أدرى لِم لَم يجب ؟! » .

يخشى الناس ..!

وأدركت ناديجا حرج مركزه ، فأرسلت له مبلغا من المال يكفى لسداد أجر فندقه فى برلين ونفقات سفره إلى سانت بطرسبرج . وكانت خلال فترة بقائه فى باريس قد أوصته بأن يعاشر « ذوى الخلق القويم » .. لكنه اعترف لها فى سذاجة بأنه يخشى الناس : « ولقد قاسيت من الصلات الاجتماعية طيلة حياتى ! » .. لكنه لم يوضح لها بالضبط ماذا ينفره من الناس ، وأى شىء فيهم كان يسبب له ذلك الألم والعذاب المرير ، فيجعله حتى إذا ما استقل قطارا ينزوى فى ركن مقصورته ، خشية أن يتعرف عليه أحد !.. بل لقد اعترف بأنه يقدر كم عاقه خجله وحياؤه الفطرى عن بلوغ النجاح فى كثير من فرص حياته ، وأكد أنه قد حاول مكافحة هذا الخجل المتأصل فيه بكل قواه ، لكن جهوده كلها منيت بالفشل .. مما جعله يكف عن الصراع !.. « أما الآن ، وقد صار فى مقدورى فى هذه البلاد الغريبة أن أنزوى فى جحرى وأكون طبيعيا فى خلوتى بنفسى ، لا رفيق لى غير الكتب والنوتة الموسيقية .. فإننى سعيد للغاية ! » .

يطارده المعجبون !

لكنه أخيرا استطاع أن يقتحم طريق النجاح ، برغم خجله .. فلقد لفتت سيمفونياته وألحانه المختلفة أسماع الجماهير فى كافة دول أوربا ، بل وطرقت أبواب الولايات المتحدة ، حيث عزفت موسيقاه فى كل مكان .. « فى كل بقعة تستقبل موسيقاى بالترحيب .. وإننى لأقضى الصباح كله أراجع البروفات ، فلا أكاد أفرغ منها حتى تسلم إلى الطابع » .. وقد بلغ من التهافت على طلب ألحانه أنه خشى أن لا يجد وقتا يلبى فيه كل الطلبات .. **بل بلغ من ذيوع صيته وتألق نجمه كشخصية شعبية أنه عمد ــ دفعا لسيل الزائرين الذين يتقاطرون على بيته من كل حدب وصوب ــ إلى وضع لافتة على باب حديقته مكتوب عليها : « بيتر ايلتش تشايكوفسكى ، يستقبل الزائرين أيام الاثنين والخميس بين الساعة الثالثة والخامسة ، ويتغيب عن البيت بقية أيام الأسبوع .. فالرجا أن لا تطرق الباب »** .

● وجاب تشايكوفسكى جميع ممالك القارة الأوروبية !.. وحيثما قاد جوقة عازفى موسيقاه ، كان يقابل بحماسة شديدة .. وفى هذه الأثناء أضاف إلى درره الرائعة أوبرات : « الملكة السباتى » و « أوجين أونيجين » ، فكتب إلى صديقته يقول إنه يعود من كل رحلة له محملا بأكاليل الغار !..

ولازمه المجد فى طوافه بباريس ، ولندن ، ودرسدن ، وبرلين ، وجنيف ، وهمبورج ، وبراغ ، وليبزج .. لكن مجده فشل فى إثارة انفعاله ، فكتب وهو فى قمة شهرته يقول لمدام فون ميك : « إنك يا ناديجا المخلوقة الوحيدة فى العالم التى تملك أن تجعلنى موفور السعادة ! » واستطرد معبرا عن أمله فى أن لا يتبدل ولا ينتهى الحافز الذى يوحى إليها بمشاعرها نحوه ، أيا كان ذلك الحافز : « لأن خسارة مثل هذه سوف تكون فوق طاقة احتمالى ! » .

إنه الآن يدنو من « قمة » النجاح .. فيتلقى دعوة كى يقود الأوركستر فى جولة تنتظم ستا من مدن أمريكا الرئيسية ، الشرف الذى لم يسبغ من قبل على أى موسيقى روسى !.. وهكذا بدا أن السماء قد أدارت نحوه آخر الأمر وجهها الباسم ..!

الانقلاب الغامض ..؟!

● ولكن ، فجأة — قبل أن يسافر إلى أمريكا — أصابته صدمة مباغتة ، فى صورة خطاب من صديقته ناديجا فون ميك ، كتب بلهجة فاترة لم تستخدمها معه من قبل !.. قالت فيه إن ثروتها توشك أن تصاب بانهيار كامل ، وأنها منذ الآن لن تستطيع أن تمده بأى مبلغ من المال — كأنما هو ما يزال فى احتياج إلى مالها ! — وأخيرا إن صلتهما الوثيقة يجب أن تتوقف من تلك اللحظة !.. ثم اختتمت الأرملة خطابها بعبارة خالية من الحرارة ، قالت فيها : « لا تنسنى .. وفكر فىّ من حين لآخر » .

صدمت لهجة الرسالة تشايكوفسكى صدمة مروعة ، فكتب إلى صاحبته على عجل ردا يعاتبها فيه : كيف أمكن أن تتصور إمكان أن يؤثر قطع مرتبه فى صداقتهما الوطيدة ؟.. وبعد أن ناشدها ألا تقلق على حالته المالية بعد تضخم إيراده .. عاد يعاتبها على عبارتها الأخيرة : « **هل تحسبيننى وضيعا إلى حد أن لا أتذكرك إلا حين أنتفع بمالك ؟.. وهل أستطيع أن أنسى ، ولو لحظة واحدة ، كل ما فعلته أنت من أجلى ، ومبلغ فضل صداقتك على وعلى موسيقاى ؟** » .. ثم ختم الخطاب بهذه العبارة : « **اغفرى لى عجلتى فى الكتابة ، فإن اضطرابى يعجزنى عن التفكير فى وضوح** » .

لكن الذى ضاعف من أثر الصدمة على المسكين أن أنباء موسكو لم تنبىء بقرب انهيار ثروة فون ميك ، بل أكدت على العكس أن الثروة كالعهد بها .. بخير ! إذن فما سر هذا الجفاء المفاجىء ؟ .. ظل تشايكوفسكى يتعلق بخيط ضئيل من الأمل فى أن يكون فى الأمر خطأ لن يلبث أن ينكشف فيصله منها خطاب إيضاح واعتذار .. لكن الخطاب المنتظر لم يصل .. حتى حان موعد السفر إلى أمريكا ..

غصة .. تشوب الكأس !

وفى نيويورك استقبل الفنان استقبال الفاتحين ، وصار فى يوم وليلة معبود الجماهير .. ينحنى له فى احترام : أصحاب الملايين ، ورجال التعليم والصحفيون .. لكنه ود لو يستبدل كل هذا المجد « الأجوف »

بكلمة إيضاح واحدة من ناديجا !.. وشاخ مظهره فى خلال أسابيع ، فكتبت الصحف تصفه بأنه « رجل وسيم الطلعة ، فى نحو الستين » رغم أنه كان لم يكمل الخمسين !..

ولم تلبث أن أتخمته عبادة أمريكا له فقفل راجعا إلى موسكو .. دون ما كلمة من فون ميك !.. كانت قد انقضت على رسالتها الموجعة ثمانية أشهر .. وأخيرا وصله خطاب قصير من صديق مشترك يقول فيه : « إنها مريضة جدا ، تعانى اضطرابا رهيبا ، ولن تستطيع أن تكتب إليك كما كانت تفعل » .. فكتب ردا عاجلا جاء فيه : « لست أقبل أن أكون سببا فى زيادة آلامها .. لكن الذى يحز فى نفسى ويكاد يقتلنى ليس انقطاعها عن مكاتبتى ، وإنما فقدانها كل اهتمام بى . كنت أتمنى أن تظل صداقتنا كما هى بعد انقطاع مالها عنى .. وكنت أعتقد أن الأرض قد تنهار على من فيها قبل أن تتغير مشاعر ناديجا من نحوى .. لكن المستحيل قد وقع ، فأطاح بكل ثقتى فى الناس ، وفى الدنيا .. بل أطاح بسكينة نفسى إلى الأبد .. ومهما ادخر لى القدر من سعادة بعد الآن فلن تكون غير سعادة مسممة ! » .

ولم يصله على هذا الخطاب الأخير أى رد !

سيمفونية الدموع

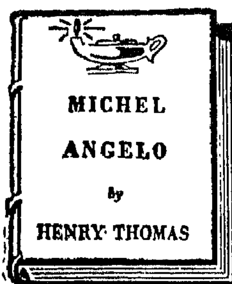
● وكان القدر يدخر له فعلا مزيدا من المجد ، فى سنواته الأخيرة الحزينة ، فقد انتخب عضوا فى الأكاديمية الفرنسية ، وسافر إلى إنجلترا فمنح درجة فخرية من جامعة كمبريدج .. وصار يتنقل من مكان إلى

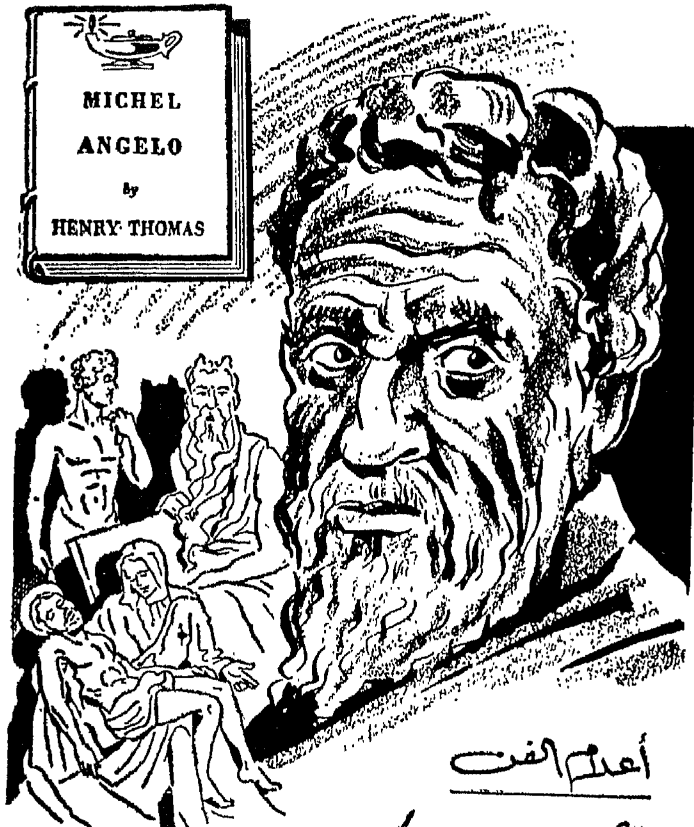
مكان ، ويقود الأوركسترا فى الحفلة تلو الحفلة ، بتتابع سريع ، شأن من يريد أن يغرق شجنه وهمومه فى العمل ...

ثم اعتكف عن الناس .. قال لأخيه إنه يضع سيمفونيته السادسة ، التى يزمع أن تكون مرثية جنائزية ، وأنشودة وداع لصداقة ماتت !... وكانت دموعه تسيل وهو يضع ألحانها،.. وحين انتهت سماها « السيمفونية الباكية ! » .

وكانت آخر ما وضع — وكأنها الوصية التى خلع بها على العالم لهب عبقريته وجمال أحزانه !.. فقد اجتاح روسيا فى تلك الفترة — عام ١٨٩٣ ! — وباء الكوليرا ، فشرب تشايكوفسكى قدحا من الماء غير المغلى . ويرجح بعض المؤرخين أنه فعل ذلك عامدا ... فرقد ينازع الموت أربعة أيام .. وفى اليوم الخامس استراح !

.. نهاية تكتنفها الشكوك والأسرار ، لحياة اكتنفتها الشكوك والأسرار ... وعبقرية جادت عليها الأقدار بمواهب الآلهة ، وضنت عليها بقوى الإنسان !.. ترى ماذا كان يجول فى رأس الفنان العظيم من أفكار حزينة ، كئيبة ، وهو على قيد الحياة ؟... هكذا راح يتساءل ألوف المعجبين به وهم يمرون فى طوابير طويلة .. أمام جثمانه !.. ولكن .. لم ينقض أسبوعان حتى عزفت « السيمفونية الباكية » للجماهير لأول مرة ، بكامل روعتها ، فأحنى السامعون رؤوسهم ، وبكوا .. فقد أدركوا مأساة السر الرهيب !





أعلام الفن

ميكيل أنجلو

قصة حياة وكفاح الفنان الأعظم !

التلميذ يتفوق على أستاذه !

● كان « ليوناردو دافنشى » مارا فى ميدان « ديللا ترينيتا » بمدينة فلورنسا ، مزهوا بمظهره الأنيق وابتسامته الجذابة ، حين صادف جماعة من مواطنيه البارزين جالسين على مقعد من مقاعد الميدان يتناقشون فى مقطوعة من شعر شاعرهم العظيم « دانتى » . فلما رفع أحدهم بصره ورآه هتف بهم : « أيها السادة .. هذا هو الرجل الذى يستطيع أن يحسم مناقشتنا ! » .

فى تلك اللحظة ظهر فى الجانب الآخر من الميدان شاب ينم وجهه ، بأنفه الأفطس المكسور ، عما تنطوى عليه نفسه من ضغينة وحقد على الدنيا بأسرها !.. **كان شعره القصير المشعث يتدلى على جبهته فى غير نظام ، وثيابه رثة مهملة ، وحذاؤه مغطى بطبقة من غبار الرخام ، ويداه خشنتين تعلق بأظافرهما آثار من معجون الطفل .. فأشار إليه ليوناردو وقال لرفاقه : « هذا هو « ميكيل أنجيلو » أيها السادة .. إنه خير من يشرح لكم شعر دانتى ! » .**

لكن أنجيلو ، الذى كان دائما مرهف الإحساس بالإهانات ، حمل قول ليوناردو على محمل التحدى المباشر ، فصاح به فى سخرية : « بل فلتشرحه أنت لهم ! إنك قدير على كل شىء .. أوَ لم تصنع نموذجا لحصان ثم نبذت المهمة لأنك عجزت عن صبه فى قالب من البرونز ؟ » .

ومضى ميكيل أنجيلو فى طريقه بعد أن نفس بهذا الانفجار عن حنقه المكبوت على حظه من الحياة .. فقد كان ما يزال شابا ، مغمورا نسبيا ، فى حين كان ليوناردو — الذى يكبره بثلاثة وعشرين عاما — محسوبا فى عداد أساطين الفن فى تلك الأيام .. ولم يكن يدور بخلد أنجيلو يومئذ أنه سوف يتفوق على منافسه ، سواء فى الثروة أو المجد !

رب ضارة نافعة !

● **كان** أبوه — « لودوفيكو دى ليوناردو بيوناروتى » — عمدة (كابريز) .. ونشأ الفتى فى أسرة جميع أفرادها من الذكور ، فقد كان له أربعة إخوة ، ليست بينهم أنثى واحدة !.. حتى أمه ماتت وهو بعد فى السادسة من عمره . وكان الأب رغم نبل محتده فقيرا ، بلا عمل فى أكثر الأوقات ، ومن ثم كان سىء الطبع عنيفا فى معاملة أولاده . وكان أخص ما يثير غضبه قول ابنه « ميكيل أنجيلو » المتكرر أنه يريد أن يصير « فنانا » !.. فقد اعتزم الأب أن لا يسمح لفرد من أسرة بيوناروتى بإضاعة وقته فى عمل « تافه » كالرسم بالفرشاة أو النحت بالإزميل ، وإنما ينبغى على أولاده الخمسة أن يشتغلوا بالتجارة وأعمال البنوك ، مثل أبناء أسرات فلورنسا الكبيرة !.. وهكذا أخذ الأب ابنه الحالم بالشدة والصرامة ، محاولا أن يبث فيه روحه « العملية » .. ولكن بلا جدوى ، فبرغم ضربه وتعنيفه إياه ، أصر ميكيل أنجيلو على أنه يريد أن يصير فنانا !.. وعندئذ أدخله أبوه ، مضطرا ، معهد « شرلانداجو » الفنى ..

ونفض يده منه يائسا !

وكان ميكيل وقتئذ لم يجاوز الثالثة عشرة من عمره .

كان « شرلانداجو » فى ذلك الحين يشتغل برسم جدران كنيسة (سانت ماريا) ، فعهد إلى تلميذه الجديد « ميكيل » بمهمة طحن مواد الألوان ونقل بعض الرسوم من نماذجها الدقيقة التى أعدها الأستاذ من قبل .. **فجاءت صور التلميذ المنقولة أروع من الأصل ، الأمر الذى أثار غيرة « شرلانداجو » منه ، فأخذ يضايقه بكافة أساليب المضايقة الحقيرة !.. وأحس التلميذ المرهف الإحساس بما يكنه أستاذه نحوه من شعور وضيع ، بعد ما قاساه من أبيه فى الماضى من تنغيص ، ففقد الفتى الناشىء تدريجا ثقته فى محبة البشر .. ولازمته هذه الريبة حتى آخر أيام حياته !**

وقد كان من حسن حظ ميكيل أنجيلو فى الواقع أن أستاذه شرلانداجو قد نفره منه على هذه الصورة ، حتى انتهى به الأمر إلى التخلص منه بإحالته إلى زميله الأستاذ « برتولدو » . وكان هذا شيخا مسنا يتولى تعليم تلاميذه فن النحت على نماذج من آثار « حديقة مديتشى » القديمة التى كانت قد اكتشفت حديثا .. وكان ذلك المكان بالنسبة إلى ميكيل أنجيلو بمثابة « جنة عدن » ، ففيه تعلم الفن الذى خلق الله يديه كى تمارساه .. وفيه قابل الرجل الذى قدمه إلى عالم الثقافة ، والفن ، والموسيقى ، والشعر ، والجمال ، والدعابة .. وكل ما كانت روحه الشابة متعطشة إليه !

.. فذات يوم ، فيما كان ميكيل أنجيلو ينحت وجه شيخ مسن ، فى

حديقة « لورنزو دى مديتشى » ، صادف أن كان لورنزو الشهير بلحمه ودمه يتنزه فى الحديقة .. فوقف يتأمل التمثال الصغير برهة ، ثم التفت إلى المثال الشاب قائلا : « يا ابنى .. ألا تعلم أن الشيخ المتقدم فى السن لا بد أن يكون قد فقد بعض أسنانه ؟ » .. وإذ ذاك تناول الشاب أزميله فكسر به إحدى أسنان التمثال ثم التفت إلى محدثه متسائلا : « هكذا ؟ » .. فضحك لورنزو وقال : « نعم ، هكذا » .



الدنيا تقبل عليه !

● وأعجب لورنزو بالفتى الموهوب الذى لم يتجاوز الرابعة عشرة ، فأخذه إلى قصره حيث سمح له بالجلوس إلى مائدته ، واللعب مع أولاده ، وأهداه معطفا بنفسجى اللون .. ثم أجرى عليه مرتبا شهريا قدره خمسون ريالا ، وفتح له عينيه على أمجاد العالم « الوثنى » الذى يعيش فيه

.. وهناك تذوق أنجيلو الجمال وجرع الحكمة من شفاه أحكم الفلاسفة والشعراء والكتاب الذين كانوا يترددون على قصر « مديتشى » من شتى أركان الأرض .. وحول مائدة مديتشى — مركز حضارة العصر — كان « أبوللو » رب الشعر و « أفلاطون » نبى المعرفة ، محور أحاديث السامرين . وفى ظل هذا التأثير الوثنى وجد أنجيلو التشجيع الذى أغراه على إنتاج عمله الفنى الأول ، وهو لوحة بارزة تمثل معركة بين البشر والحيوان ، ويتجلى فيها جمال الأجسام العارية على النمط الإغريقى ..

وذات يوم دهمت أنجيلو الكارثة التى خلفت أثرا فى نفسيته وحياته طيلة عمره بعد ذلك .. فقد بدرت منه كلمة انتقاد لفن زميل له من تلاميذ المعهد يدعى « توريجيانو » ، **وكان هذا فتى سريع الغضب قوى البنية ، فلكمه بقبضته لكمة كسرت عظام أنفه وشقت لحمه ، فأغمى على أنجيلو من قوة الصدمة وحمل إلى بيته وقد حسبه القوم ميتا .. وحين التأم الجرح نظر الشاب إلى وجهه فى المرآة فرأى آثار الندبة تشوه معالمه ! ومنذ ذلك التاريخ انطوى على نفسه ، وبدأ ينظر إلى الجنس البشرى كله بسخط كامن .. ولم يشف قط تماما من تأثير ذلك التشويه الجثمانى والنفسانى الذى أصابه !**

فى تلك الفترة بلغت مسامع أنجيلو دعوة المصلح الدينى والسياسى «سافونا رولا » ، الذى حمل على الفساد الوثنى والوحشية التى يمارسها حكام المدينة السريين ، فكان لتلك الصيحة أثر بالغ فى نفسية الفنان الشاب المرهف الإحساس ، حتى لقد دخل أحد إخوته بسببها الدير ، وفكر أنجيلو نفسه فى أن يتبعه فيهجر فنه ودنياه بأسرها وينزوى بدوره فى أحد

الأديرة !.. فلقد نشب فى أعماقه صراع عنيف بين الإلحاد والدين ، بين الجمال والواجب ، بين مبادئ العالم القديم والمثل العليا للعالم الجديد .. لكن الصراع لم يلبث أن خمد بعد حين ، واستطاع أنجيلو — لحسن حظ الفن والإنسانية — أن يوفق بين النقيضين ، ويسخر فنه لخدمة المسيحية والوثنية فى آن واحد ، أو « يزوجهما » على حد تعبيره ، ويوحد بين قداسة الجمال وجمال القداسة !.. وقد أسبغ عليه هذا التوفيق سكينة نفسية ، وصار المبدأ المسيطر على جميع آياته وروائعه فى مستقبل حياته ..

فى تلك الأثناء مات « لورنزو » حاكم المدينة ، وراعى الفن والفنانين — وفى مقدمتهم أنجيلو — فتلت ذلك فترة اضطراب سياسى ، إذ استطاع « سافونا رولا » أن يؤلب الجمهور ضد طيش واستهتار « بييرو دى مديتشى » ابن لورنزو . و لم تلبث جيوش شارل ملك فرنسا أن زحفت فى اتجاه المدينة .. وقام نفر من المتعصبين للدين بإتلاف الكثير من الصور والتماثيل الجميلة فى مختلف أنحاء فلورنسا .. فتراكم فى الشوارع حطام كنوز الفن المدخرة طيلة قرون !.. وأمام هذه العاصفة ، اضطر الشاب إلى أن يفر من المدينة !

الغيرة والحسد .. يطاردانه !

● ولجأ أول ما لجأ إلى بلدة (بولونيا) ، حيث عهد إليه المشرفون على كنيستها بصنع تمثال على صورة « ملاك » يمثل الوحدة بين العالم القديم والعالم الجديد .. ولكن ، مرة أخرى ، طاردت أنجيلو قوى الحسد

(. الكسندر ديماس)

والغيرة من جانب زملائه الفنانين ذوى النفسيات الوضيعة ، الذين رأوا فيه منافسا متفوقا يخشى خطره .. فاضطر الشاب تحت ضغط هذه المطاردة الفنية أن يهجر بولونيا ويعود إلى فلورنسا . لكنه لم يمكث فى مسقط رأسه غير فترة قصيرة ، شد بعدها رحاله قاصدا إلى روما ، كى يبحث فيها عن حظه الضائع . و لم يكن قد جاوز الحادية والعشرين حين وضع قدمه فى مدينة الفاتيكان ذات الماضى العريق .

لكن حراس الإيمان وسدنة الدين كانوا قد خانوا رسالتهم ، فحين وصل ميكيل أنجيلو — سنة ١٤٩٦ — وجد روما مدينة للهو ، والموسيقى ، والجريمة !.. للعلم ، والجمال ، والفساد !.. للرقص ، والوليمة ، والشعر ، والسم !.. للمعابد البديعة ، وزنزانات السجون الكريهة !.. للتدين فى بيوت الفقراء ، والشهوة فى بيوت الأغنياء !

.. ومن ثم عاش « أنجيلو » عامين أشبه بالغريب عن هذا الوسط ، أو النغم الناشز عن الدنيا كلها !.. كان لسان حاله يقول : « ليس لى أصدقاء .. ولست بحاجة إلى أصدقاء .. ولن يكون لى أصدقاء ! » .

لكنه بعد إنقضاء العامين لمس اعترافا بفنه ، حتى فى مدينة الأنانية المتوحشة والتنافس الذى لا يرحم ، واشترك فى مسابقة لصنع تمثال للمسيح والعذراء كى يوضع فى كنيسة القديس بطرس ، فكتب فى مواصفات المشروع : « سوف يكون التمثال أروع مما يستطيع أن يبدع أى فنان معاصر ! » .

وكان هو الرابح فى المناقصة ، فأسندت إليه المهمة ، وصنع التمثال .. وهرع أهل روما لمشاهدته ، فرأوا المسيح الميت راقدا فى حجر امرأة رائعة

الجمال ، تصغره فى السن بكثير !.. وأعجب النظارة بالعمل الفنى ، لكنهم دهشوا وسألوا المثال الشاب : لماذا جعل الأم أصغر سنا من الابن ؟.. فأجابهم أنجيلو : « ألا تعلمون أن أية امرأة طاهرة تحتفظ بشبابها أعواما طويلة ، أكثر من سواها ؟ فكم بالأحرى تحتفظ بشبابها العذراء مريم ، التى لم تستسلم يوما لشهوات البشر ، المحللة والمحرمة على السواء ؟! » .

التمثال .. « العملاق » !

● وقد ظل أنجيلو طيلة حياته يرسم وينحت الصور والتماثيل لا وفقا لمعتقدات العصر ، بل وفقا لفلسفته الخاصة . وكان من أوائل الفنانين المحدثين الذين طبقوا علم النفس فى الفن !.. وحين فرغ من ذلك التمثال استسلم لأول مرة لرذيلة الغرور ، فقضى ليلة منفردا بالتمثال داخل الكنيسة ، فى غير حضور أحد ، يحفر اسمه ومسقط رأسه على قاعدة هذا العمل الفنى العظيم . وكانت المرة الأولى والأخيرة التى وقع فيها باسمه على عمل فنى من صنعه !.. فمثل الأشجار والجبال التى تحمل طابع الطبيعة ، كانت تحف ميكيل أنجيلو وآياته فى غنى عن أن يكتب عليها اسم خالقها !

وفى سن السادسة والعشرين عاد أنجيلو إلى فلورنسا .. وأثناء مروره بفناء الكاتدرائية الكبرى فيها رأى كتلة ضخمة من المرمر مهملة فى مكانها منذ ست وأربعين سنة !.. فعرض على أولى الشأن أن يتيحوا له الفرصة كى يصنع منها شيئا جميلا . وقبل عرضه ، فبدأ العمل فيها يوم ٢ أغسطس

سنة ١٥٠٢ .. وفى يناير سنة ١٥٠٤ كان تمثال الملك « داود » الضخم الشهير قد تم !

وأطلق الناس على التمثال : « العملاق » !.. وبلغ من شهرته أن صار الإيطاليون عامة يؤرخون الأحداث الهامة تبعا له فيقولون : « فى السنة التى أقيم فيها العملاق » .. ومن يزور أكاديمية فلورنسا للفنون الجميلة اليوم يرى فيها هذا التمثال قائما جبارا ، بجسمه القوى الرياضى ، ورأسه الصغير ، وخصره النحيل ، وذراعيه النحيلتين ، ويديه القويتين اللتين تبرز أوردتهما الدموية للعيان .. وبيده اليسرى يتناول « المقلاع » من على كتفه .. وفى يده اليمنى يمسك بالحجر متأهبا لإطلاقه على عدوه الجبار « جوليات » !.. على أن أجمل ما فى التمثال هو وجهه ، الذى ترتسم فيه سمات الرجولة الكاملة ، والعزم الراسخ ، والاحتقار للأعداء .. التى كانت سمات أنجيلو نفسه ، فقد كانت لكل من « فنان فلورنسا » و « منشد المزامير » نفسية واحدة : نفسية الفنان والمحارب فى آن واحد !

وأعادت شهرة « العملاق » صانعه إلى روما ، حيث كان البابا الجديد « يوليوس الثانى » مشوقا إلى أن يخلد ذكراه بقبر لم يشهد العالم له مثيلا ! ومن يصنع له هذا القبر العظيم غير أنجيلو ؟.. وهكذا استعان به على تحقيق حلمه ، فأعد الإثنان تصميما للقبر الفاخر يتكون من أربعين حارسا — بحجم الإنسان الطبيعى — يحيطون بجثمان البابا ، وكلهم يمثلون أعظم قديسى الماضى وأبطاله وأنبيائه .

وسأل البابا أنجيلو : « كم يتكلف هذا التمثال ؟ » .. فأجاب الفنان ،

مغاليا فى التقدير : « مائة ألف ريال ! » .. وإذ ذاك قال البابا : « وما قولك لو جعلناها « مائتى ألف ريال ؟ » .. وقبل أن يفيق أنجيلو من ذهوله ، هتف به البابا وهو يصرفه : « لا تقف هكذا محملقا أيها الشاب .. اذهب لتبدأ العمل ! » .

.. والوشاية تتعقبه !

● **وسافر** أنجيلو إلى (كارارا) حيث انتقى عشرات الأطنان من الرخام الفاخر . و لم تكد هذه الجبال المرمرية تصل إلى فناء كنيسة القديس بطرس حتى بدأ أنجيلو العمل فى صوغها وبعث الحياة فى مادتها الحجرية . ولكن ، هنا تدخل الحسد والغيرة لعرقلة جهود الفنان الناجح ، فسرعان ما بدأ البابا يتراخى فى إمداد أنجيلو بالمال المتفق عليه ! وظهر أن منافسا له يدعى « برامانت » أدخل فى روع البابا أن إقامة القبر أثناء حياة صاحبه فأل سيئ ، واقترح المتحدث أن يتولى هو تصميم العمل الجديد فيعيد بناء كنيسة القديس بطرس بحيث تصبح تحفة للأجيال !

واقتنع البابا بكلام الواشى .. فلما ذهب أنجيلو ليقبض قدرا من المال ، طلب منه الحراس أن يعود فى الغد .. ولبثوا يكررون له الوعود الباطلة ويحولون بينه وبين مقابلة البابا — بأمر من البابا ! — يوما بعد يوم !.. حتى جابهه أحدهم مرة بقوله : « لدى أمر بمنعك من الدخول ! » .. فاستشاط أنجيلو غضبا وصاح بمحدثه : « إذن قل للبابا إنه إذا أرادنى فى المستقبل فليحضر بنفسه إلى ! » .



وكانت نتيجة ذلك أنه اضطر إلى الفرار من روما .. فعاد إلى فلورنسا بقلب يثقله المزيد من سوء الظن بالإنسانية . أحس أنجيلو الآن أن العالم بأسره يقف ضده ! صار يحكم إغلاق مرسمه خشية أن يتسلل إليه أحد منافسيه فيسرق أفكاره ومشروعاته .. وبلغ من ارتيابه فى مقاصد الناس أن صار يرتاب فى نية خياطه إذا وجد فى سترته عيبا ما ، فيخيل إليه أن الرجل قد فعلها متعمدا بغية إغاظته !.. وكلما جرح شخص إحساسه كان ينطوى على نفسه فيعتصم بكبريائه ويأبى أن يدع أحدا يقترب منه !

واستدعاه البابا مرارا وتكرارا ، لكنه رفض الذهاب !.. فأرسل إليه من يبلغه أن البابا « يتوسل إليه » أن يذهب !.. وفى هذه المرة قبل أنجيلو أن يذهب لمقابلته ، ولكن على أن يلتقيا فى منتصف الطريق .. فى بولونيا وليس فى روما !

وقال له البابا : « إنك رجل غريب .. بدلا من أن تحضر إلينا انتظرت حتى جئنا إليك ! » .

ـــ إن قداستك قد أسأت إلّى أكبر الإساءة .

ـــ لكنى سأمحوها .. أعدك بذلك .

ووضع يده على رأس الفنان الراكع عند قدميه .. وباركه !

لكن البابا كان ما يزال متشائما من فكرة إعداد قبره أثناء حياته ، فنبذها وكلف أنجيلو بمهمة أخرى بدلا منها : أن يرسم سقف كنيسة (سستين) بمقر الفاتيكان .. فأدى أنجيلو المهمة كأروع ما يكون الأداء . قضى أربع سنوات راقدا على ظهره طيلة النهار فوق محفة خشبية يرسم ويلون !.. وبلغ من اعتياد عينيه وعضلات بصره لهذا الوضع أن ظل بعد ذلك شهورا عاجزا عن القراءة ما لم يضع الخطاب أو الكتاب الذى يبغى قراءته فوق رأسه ويرفع بصره إليه من أسفل !



الأنامل الخالقة !

● وحين أتم أنجيلو رسم السقف الذى يحوى صور اثنى عشر رسولا وقديسا ، ذهب البابا ليتفرج عليه .. فلاحظ أن ثياب الرسل الذين رسمت صورهم أولا قد حليت بالذهب والتطريز ، بينما حذف ذلك من ثياب الباقين . وحين سأل أنجيلو عن السبب أجاب بقوله : « فى عصر هؤلاء الآخرين كان الناس فقراء وأمناء ، يملكون الإيمان لكنهم لا يملكون الذهب ! » .

ولئن كان قد قيل فى وصف شكسبير : « إن الله قد ضاعف الخليقة حين خلق شكسبير ! » .. فإن هذا القول يصح أيضا فى وصف ميكيل أنجيلو ، فإن سقف كنيسة « سستين » إنما هو الخليقة خلقت من جديد ! .. كيف لا وقد صور فيها أنجيلو مراحل خلق الدنيا ، مرحلة بعد مرحلة : ففى البداية نرى ظلاما ووحشة رهيبة .. ثم تأتى اللحظة السابقة لمولد العالم ، وهى لحظة حافلة بعوامل الترقب والانتظار .. ثم نرى سحبا من الملائكة .. ثم يفصل الرسام النور عن الظلمة .. ثم يصور الشمس والقمر .. ويفصل الماء عن الأرض . ويبعث الحياة فى آدم بلمسة من أصبعه .. ويصوغ حواء من ضلع آدم .. ويضع أمامها أشجار الحديقة والفاكهة المحرمة .. ثم يرسل ملاكا ليطرد آدم وحواء من الجنة بسيفه الذى يشع منه اللهب .. ويرسل طوفان غضبه على البشر الخطاة .. وحول هذه

الصورة الوسطى للخليقة والدمار يجلس الأنبياء والرسل والحواريون ينظرون ، ويفكرون ، ويؤملون ، ويصلون .. وقد انهمك كل فى رسالة خاصة ، غايتها الوساطة بين الله والإنسانية .

ومات البابا يوليوس الثانى ، فطالب ورثته ميكيل أنجيلو بإتمام القبر الذى كان قد شرع فى إنشائه أثناء حياته .. **ورغم أن تلك الأيام كانت حافلة بالحروب والأوبئة التى تجتاح إيطاليا ــ بحيث كانت الأبنية تدمر ، والصور تحرق ، والتماثيل البرونزية (ومنها بعض تماثيل أنجيلو نفسه) تصهر فى فوهات المدافع ! ــ فإن الفنان مضى فى عمله ، غير آبه بهذه المثبطات !.. وتتابع البابوات ، فانتخب كل منهم ، وحكم ، ثم مات ، والفنان ماض فى مهمته !.. وتواترت عليه الأمراض ، وخيبة الأمل ، ودسائس الأعداء ، وأنامله التى بدعها الله كى تخلق الجمال ماضية فى عملها الملهم !**

واتهمه حساده بالكسل ، والأنانية ، بل وعدم الأمانة ، فزعموا أنه قد ارتشى من أصحاب محاجر (كارارا) كى يمون القبر برخامهم دون غيره من أنواع الرخام !..

ورغم أن التهم كانت ملفقة ، فقد أصغى إليها الرؤساء فأجبروا أنجيلو على استخدام نوع آخر من الرخام يقل عن الأول فى الجودة .. ومع ذلك فإنه مضى فى مهمته ، شاكيا مرارة نفسه للمرمر الأخرس ، وهو ينطقه بأفصح بيان !

وهو يعطينا صورة دقيقة لشخصه فى تلك الآونـة ــ وكان فى السابعة والأربعين من عمره ــ فيصف صورته بهذه العبارات : شعر

قصير مجعد ، وجبين غضنته الآلام ، وعينان مفكرتان نافذتان — لكنهما ذاهلتان — وشفتان ضيقتان مضغوطتان ، فى حزم وتحد .. ولحية قصيرة سوداء .. والوجه كله يسيطر عليه الأنف العريض « الأفطس » المكسور .. وهى قسمات رجل عرف الحزن ، والتمرد ، والسخرية ، والجمال ، والعناد ، والاستسلام .. قسمات شخص خرافى وقديس !

٢٣ سنة .. فى نحت ضريح !

● وأنفق فى صنع ذلك الضريح ثلاثة وعشرين عاما !.. أودى الطاعون خلالها بأخيه ، وكاد يودى به هو .. ولكن حتى فى تلك الظروف « المستحيلة » أفلح الفنان فى أن يفجر النار من الرخام !.. وأخيرا — فى سن السبعين — فرغ من مهمته . وكان واحد من حراس القبر الأربعين يرمز إلى شخص « موسى » ، وقد جاء تمثاله أسمى صورة لفن النحت الحديث ، فإن نصف التمثال على شكل إلـٰه ، ونصفه على شكل إنسان — رمزا للوثنية والمسيحية — وفى جبهته الضيقة قرنان . وهو يصور موسى جالسا وقد تدلت لحيته الطويلة حتى ركبتيه ، وامتدت ذراعاه العاريتان إلى جانبيه ، وأمسك بيمينه القوية حجر الشريعة . أما حركة قدميه فتنم عن التأهب للنهوض لمخاطبة شعبه المتمرد بقوة ، وإعلانهم بأوامره ووصاياه .. وفى عينيه الحادتين تهديد ووعيد ، وفى شفته السفلى غضب وإنذار .. وبالاختصار فهو يرمز إلى النبى الرهيب المرسل من قبل إلـٰه غاضب ، كما يرمز إلى الإدانة الصارمة الصادرة من

الإنسان الأسمى على البشر الحمقى المتوحشين !

وفى تلك الحقبة كان ميكيل أنجيلو نفسه ــ مثل موسى ــ يدين البشرية فى أعماقه ، دينونة أظهرها فى فنه حين عاد إلى جدران كنيسة (سستين) فرسم عليها لوحات تكميلية تمثل « يوم الدينونة الأخير » .. وقد جاءت أجساد أكثر المخلوقات فى رسمه عارية من الثياب ، فعلق كردينال من رجال الدين على ذلك بقوله : « إن هذه اللوحة تصلح لحانة ، وليس لكنيسة ! » .. وحين طلب البابا من أنجيلو أن يكسو أجساد العرايا أجابه الفنان فى حدة : « فليعن صاحب القداسة بأرواح رعاياه ، ويدعنى أنا أعنى بأجسادهم ! » .

واللوحة تمثل حشدا كبيرا من البشر يحيطون بالمسيح ، وقد بدا فى هذه المرة كإلـٰه للانتقام وليس إلـٰها للحب !.. لقد جاء يوما ليهدى العالم إلى طريق الخير ، فنبذه العالم .. واليوم يأتى مرة أخرى ولكن ليدين العالم ، وفى دينونته الآن لا أثر لشفقة ولا رحمة وإنما عدل صارم ، وجلال مهيب ، وقوة طاغية .. والعذراء تقف خلفه حزينة عاجزة ، تغض بصرها عن ابنها وهو يسوق الجماهير المذعورة إلى مقرهم الأخير ليلقوا جزاءهم : أكثرهم إلى أسفل ، حيث الجحيم .. وحفنة ضئيلة منهم إلى أعلى حيث النعيم !.. وهكذا تصور اللوحة الصراع الأبدى بين جهنم والفردوس ، وتلخص تاريخ الجنس البشرى فى صور ترمز لمصير الإنسان ..

غرامة الأوحد !

● فرغ أنجيلو من لوحة يوم القيامة فى ليلة عيد الميلاد من عام ١٥٤١ .. وكان قد بلغ غايته من الثراء والشهرة ، وبات موضع حسد جميع فنانى العالم ، لكنه كان أبعد الناس عن السعادة ، وأقرب إلى الشقاء منه فى أية فترة مضت !.. فإنه كان قد دفع ضريبة طول العمر : فقد أصدقاءه واحدا بعد واحد ، ومنهم ثلاثة فقدهم فى فترة قصيرة : أحدهم فتى فى الخامسة عشرة ، فنان يافع كان أنجيلو المحروم من النسل قد أحبه بحنان الأب !.. وثانيهم عم ذلك الفتى وكان من أخلص المعجبين بأنجيلو والمتحمسين لفنه . وثالثهم ، أو بالأحرى ثالثتهم وأخطرهم أثرا فى فجيعة الفنان ، امرأة ذكية جميلة تدعى « فيتوريا كولونا » ، **كانت هى المرأة الوحيدة التى أظهرت نحو أنجيلو أكثر من مجرد الأعجاب ، فتبادلا ــ طيلة أعوام ــ عواطفهما المكبوتة فى باقة من الخطابات والقصائد التى تعد اليوم من أعظم كنوز الأدب الإيطالى !.. فلما انتزع الموت فجأة حلم أنجيلو الوحيد الذى مناه بالحب ، وقف المفجوع بجانب جسد المرأة التى عبدها ــ دون أن يحتضنها قط !ــ فتناول يدها الباردة وقبلها . وقد صرح فيما بعد لأحد خلصائه بقوله : « لا شيء يمضنى ويحزننى أكثر من أنى ــ حتى وهى على فراش الموت ــ لم أجرؤ إلا على أن أقبل يدها ، دون شفتيها ! » .**

وبموتها حرم الفنان العظيم من فرصته الوحيدة والأخيرة للسعادة الدنيوية .. وعلى أثر تلك الفجيعة انهارت صحته فرقد مريضا أسابيع ، يتأرجح بين الحياة والموت !

لكنه أبل من مرضه ، فإن رسالته لم تكن قد تمت . كان عليه أن يتحف العالم بآية أخرى من آيات فنه ، يعتبرها البعض أعظم آياته على الإطلاق !.. كان فى الثالثة والسبعين حين سأله البابا أن يضع تصميم قبة جديدة لكنيسة القديس بطرس ، فرفض معتذرا بتقدمه فى السن وعجزه عن الاضطلاع بمهمة طويلة مثل هذه . لكنه قبل أخيرا تحت ضغط إلحاح البابا ورجائه . ولم يكن يأمل أكثر من أن يستطيع العمل فى المشروع الجديد أشهرا معدودة .. لكن البابا الذى كلفه بتلك المهمة مات ، ومات بعدة أربعة بابوات خلفوه ، والفنان الشيخ ما يزال على قيد الحياة ، ماض فى عمله !.. حتى أتمه بعد ستة عشر عاما ، لم تفارقه خلالها قواه الجسمية أو العقلية .. وأخيرا — فى سن التاسعة والثمانين — استراح من عمله فى ذلك الصرح الفنى الرائع .

لكنه لم يسترح إلا لكى يبدأ عملا جديدا ، فقد قضى الأشهر الأخيرة من حياته يضع تصميم أربعة تماثيل لقبره هو ، وينحتها بيديه .. **وفى يوم ١٢ فبراير سنة ١٥٦٤ وقف على قدميه طيلة اليوم ينحت الرخام بازميله .. وبعد يومين خرج على ظهر جواده أثناء انهمار الأمطار .. وبعد أربعة أيام أخرى ، لفظ نفسه الأخير .. وهو محتفظ بوعيه الكامل !.. وفى لحظاته الأخيرة أعرب لقسيسه عن أسفه ، لا على انتهاء حياته فى ذاتها ، وإنما على أنه يموت وهو لم يكد يصل إلى مرحلة إتقان فنه!**



الفنان الذى خلد «نهضة مصر» فوجب أن تخلده مصر!

الفنان الذى نسيته مصر !

● فى مايو ١٩٥٣ تم انقضاء ربع قرن على إقامة تمثال « نهضة مصر» الذى كان يطل من عليائه على ميدان محطة القاهرة، رمزا لوثبة مصر الفتية فى سبيل استرداد مجدها الغابر التليد .. ولكم يحز فى النفس أن تهمل مصر ـــ ويهمل الجيل الحالى من أهل الفن فيها ـــ إحياء ذكرى هذه المناسبة المجيدة ، كما كان خليقا بالمصريين أن يحيوها ، فيذرفوا الدموع سخينة ـــ وفاء ، ورثاء ـــ للفنان العظيم « مختار » ، خالق هذا التمثال الخالد ، النابض بالحياة على مر القرون ، وغيره من التماثيل والتحف الفنية التى رفعت رأس مصر ورددت اسمها فى أروقة أرقى المحافل والمتاحف الفنية فى باريس ، عاصمة الفن العالمى ..

بل كيف ينسى المصريون مختارا وهم يشاهدون له فى قلب العاصمة والإسكندرية ، عدا تمثال نهضة مصر ، تمثالى « سعد » الرائعين ؟.. كيف ينسى المصريون مختارا ، فنان مصر القومى ، الذى استطاع بشىء كالمعجزة أن ينقل الفن من أجواء المعابد القديمة وقاعات القصور ، إلى ساحات الشعب المكافح ؟.. كما استطاع بشىء كالمعجزة أن يربط الفن بعجلة الوطنية ويجنده لخدمة البلاد ، فاستحال الفن على يديه إلى ضرورة قومية ، بعد أن كان فى مصر القديمة ضرورة دينية ؟

كيف ينسى المصريون مختارا ، الذى نحت فى تماثيله الوطنية « روح »

مصر ، واتخذ من الفلاحة المصرية نموذجا جديدا أدخله على الفن ، وصور من حياتها جانبها الإنسانى الخالد : حزنها وفرحها ، وراحتها وتعبها ، وحبها وكفاحها الدائب ؟.. لقد رد فن مختار إلى مصر جانبا من عزتها ومجدها القديم ، منذ تناول الإزميل الفرعونى فأزال عنه الصدأ ، وأجرى به الحياة متدفقة زاخرة فى الأودية الصماء ، وأنطق به الصخور العجفاء بالآيات البينات !

حقا لقد كان مختار معجزة !.. معجزة ليس من الميسور فى هذا المجال الضيق أن نلم بها من كافة أطرافها ، ولكننا سنوجزها بقدر ما يسمح المقام ، ملخصة عن المرجع الوحيد الذى أرخ حياة مختار ، وهو كتاب ابن شقيقته الباحث الفاضل الأستاذ بدر الدين أبو غازى .. أول كتاب يصدر عن فنان مصر العظيم ، الجدير بأن يحظى منا بالخلود الذى كفلته فرنسا لفنانها « رودان » ..

منبته ونشأته ..

● **أما** أبوه فكان « الشيخ إبراهيم العيسوى » عمدة طنبارة ، وأما أمه فهى « نبوية البدراوى » ، التى تنتسب إلى بيت عريق يصعدون بنسبه إلى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه . ويحكى شيوخ القرية عن السيد البدراوى — جده لأمه — أنه كان معتدا بنفسه ، ثائرا على الأتراك الذين كانوا يعيشون فى أبهة السلطان ويسومون الأهالى الخسف والعذاب . وكان والده شيخا حين تزوج — للمرة الثانية — من أمه

(الكسندر ديماس)

الشابة ، ورغم أنه كان قد أنجب أولادا من زوجته الأولى ، فقد كان ما يزال يحس شوقا إلى مزيد من النسل !.. واستجاب الله له فأنجب بعد عام من زواجه طفلا سماه « محمود مختار » ، وقد ولد فى بلدة طنبارة التابعة لمركز المحلة الكبرى فى ١٠ مايو سنة ١٨٩١ .

● ودرج الطفل « محمود مختار » فى الريف ، حيث كان يستمع فى البيت إلى حكايات الجارية وقصص أجداده .. ويستمع فى المقهى إلى الشاعر الريفى يحكى على الربابة قصة « أبو زيد الهلالى » ، و « الزير سالم » ، و « عنترة » ، و « دياب » !! .. فبعث هذا الجو فى نفسه فكرة البطولة . ولكنه لم يشارك الأطفال لهوهم المألوف فيقيم بطولة خيالية من حصون التراب والمعارك الوهمية وسيوف الحطب .. وإنما تحول عن اللعب إلى هواية أخرى تملكت كل نفسه : كان يقضى ساعات يومه على ضفة الترعة تحت شجرة الجميز يصنع من طينها الخيول والفرسان والجمال الراحلة نحو بلاد غريبة .. والجوارى الهاربات إلى سفوح الجبال !.. واتجه إلى المشاهد المحيطة بحياته يصور منها الفلاحات عند ذهابهن إلى الترعة ، ويصنع من الطمى « تماثيل » ساخرة للحلاق والشحاذ وغيرهما من شخصيات القرية ..

يفر من « الكتّاب » إلى شاطئ الترعة !

فلما كبر الصبى وبدأ يذهب إلى « الكتّاب » أضاف إلى هموم أمه هما جديدا إذ كان يفر منه إلى الترعة .. التى يحس بأنها تسر إليه بأشياء أروع مما يصخب به الكتاب !.. والتى يستشعر على شاطئها سعادة تفيض بها

نفسه ، وينتشى بها حسه !

وكان من الممكن أن تطويه الأيام فى غمارها ، فينشأ ريفيا ويعيش ريفيا إلى النهاية .. لولا أن الأقدار تدخلت فى الوقت المناسب ، حين سافرت أمه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج . فلما عادت خطر لها أن تبقى بالقاهرة أياما تزور فيها بعض أقاربها الذين يقطنونها .. وإذ ذاك طابت لها فكرة « الإقامة » بها بعد أن ضاقت ذرعا بالحياة فى بيت زوجها الذى كان متزوجا قبلها من امرأة أخرى وله منها أولاد لم يكونوا قط على وئام معها !!

وحين استقر رأى الأم على هذا القرار مضت إلى بلدتها ريثما أقيمت لها الأفراح بمناسبة عودتها من الحج ، ثم رحلت إلى القاهرة من جديد تاركة الصبى فى البلدة يتابع هوايته فى صنع التماثيل من الطين على شاطىء الترعة ، كى يتعزى بها عن غياب أمه .. ولكن لم تلبث أن نشبت بينه وبين بعض صبيان البيت ذات يوم مشاجرة خرج على أثرها إلى الطريق مصمما على ألا يعود ! وعند مدخل البلدة التقى بشيخ من شيوخها علم منه الصبى أنه ماض إلى القاهرة ، فرجاه أن يصحبه إلى أمه .. واستجاب الشيخ لرجائه غير مبال بغضب أهله وذويه !

● **وفى القاهرة** قضى الصبى أيامه الأولى بمدرسة مجاورة للبيت ، أتم فيها ما كان قد بدأه فى الكتاب من تعلم القراءة والكتابة ، وتعرف إلى بعض الرفاق فكان يمضى فى صحبتهم إلى المصانع الصغيرة ويجتمع بهم ليسمعوه وهو يقرأ لهم حكايات ألف ليلة أو القصة الهلالية .. وعندما يتوفر لهم بعض الملاليم يقبلون على صندوق الدنيا ليشاهدوا صور

« يونس » و « السفيرة عزيزة » ويستمعون إلى حكايات صاحب الصندوق الشائقة عن مغامرات الأبطال وأسفارهم ..

ومضت الأيام ..

إنشاء مدرسة الفنون الجميلة

● فى ذلك الوقت كانت روح البعث والإنشاء يقظى فى القاهرة ، وكان إنشاء مدرسة للفنون الجميلة من الحاجات التى أحست العاصمة بضرورة تحقيقها .. فقام نفر من النابهين يدعون إليها ، وظهرت دعوتهم مقترنة بمولد دعوة إنشاء الجامعة ! ونجحت الفكرتان ، فتأسست مدرسة الفنون الجميلة[1] بدرب الجماميز .. واستقدم لها كبار الأساتذة من فرنسا وإيطاليا ، ثم افتتحت لطلاب الفن فى ١٨ مايو سنة ١٩٠٨ .. كما تأسست الجامعة بفضل جماعة من كبار المصريين الذين لبوا الدعوة التى نادى بها الزعيم الشاب مصطفى كامل فى خطاب له ..

والتحق محمود مختار ـــ وكان قد بلغ السابعة عشرة من عمره ـــ بمدرسة الفنون الجميلة ، التى تلقت فى البداية خليطا عجيبا من سكان القاهرة ، متباينين فى كل شيء . ولكن الأساتذة (لا بلانى) و (فورشيللا) ـــ وغيرهما ـــ استطاعوا أن يلتقطوا أشعة « المواهب » التائهة وسط ذلك العدد الكبير ! وما لبث الفضوليون أن انصرفوا عن

(١) وقد تحولت اليوم إلى «كلية» افتُتح مبناها الجديد الفاخر بالزمالك منذ سنوات.

المعهد فبقى فيه نحو مائة طالب بينهم فئة كان يلوح عليها النبوغ الباكر .. وعلى رأسها الطالب « محمود مختار » !

و لم تمض شهور قليلة حتى بدأ مختار يجذب التفات أساتذته إليه ، وظهرت لهم مقدرته الفنية بجلاء حين أعد نموذجا من تمثال « فينوس ميلو » العالمى الشهير ، دون معونة أو إرشاد من أحد ..



« مختـــار » الطالب بمدرسة الفنون الجميلة سنة ١٩١٠

و كانت أحلام البطولة ما تزال تستهويه ، وقد وجد لها هنا الأرض الخصبة ، فإن الشرارة الشى أشعلها مصطفى كامل قد جذبت المصريين وجمعتهم حول حلم مشترك وهدف واحد .. فألهب ذلك كله مشاعر « مختار » ، التى انطلقت إلى ميادين الجهاد الشعبى .. فإذا هو يمضى مع الجموع الثائرة يهتف للوطن ويطالب بالدستور . ومن وحى روح هذه الحركة الوطنية الفوارة استلهم فكرة تمثالى « مصطفى كامل » و « محمد فريد » !

وفى سنة ١٩١٠ أقيم أول معرض لأعمال طلاب مدرسة الفنون الجميلة « بكلوب محمد على » بشارع المدابغ .. فلقيت أعمال مختار كل إعجاب وتقدير ، ومضى أستاذه « لابلان » بين جموع الزائرين يشير إلى إيماءات النبوغ فى هذه الأعمال ، مزهوا بتلميذه !

إرساله فى بعثة إلى باريس

● ووقع الاختيار على مختار ليرحل إلى باريس مبعوثا لاستكمال دراسته الفنية .. فما استقر به المقام فى عاصمة النور حتى يمم وجهه شطر المثال الكبير « كوتان » ، الذى كان للقائه أعمق الأثر فى نفس مختار ، فقد أمده بيد هدته فى الجو الغريب ودفعته نحو الاندماج تدريجيا فى حياة باريس ..

وها هو الآن بين المتاحف والمعارض وأكاديميات الفنون يعب منها ويملأ نفسه وروحه بأمجاد الفن القديم ، ويستضئ من المشاعل الخالدة !.. وأخذت باريس تسكب فى روحه سحرها ومرحها وما فيها من فن ومعرفة . وهناك التقى بـ « جرمين » ، الحسناء التى فتنته بسحرها .. فبثها عواطفه فى غير مواربة ودعاها لتكون رفيقة لقلبه . وأجابت دعاءه ، لكنها لم تلبث أن جعلت تنظر إلى علاقتها به بعين عقلها ، فى حين كان هو يهفو إليها بقلبه !.. وإذا بها تتخلى عنه بعد قليل ، بغير ما سبب .. ولا مقدمات !.. فأصابته الصدمة فى قلبه إصابة قاسية ، عاش من بعدها يرهب الوقوع فى مثل تلك العاطفة المدمرة !

يتعزى بالعمل عن فشله فى الحب

وفى باريس تقوم بينه وبين الكاتب الفرنسي الكبير « تريستان برنار » علاقة صداقة وطيدة ، فيجد مختار فى فلسفة الرجل الساخرة ونظرته الخاصة إلى الحياة معينا له على التحرر من مشاعر الأسى التى تزاحمت فى قلبه حين أحس خواءه من الحب ..

وعاش مختار فى باريس ثلاث سنوات ، مكبا على صقل فنه والتمكن منه .. حتى شعر أن فى وسعه تحقيق رغبة طالما راودته منذ استقر فى عاصمة الفن ، هى أن يعرض بعض أعماله فى المعرض السنوى للفنانين الفرنسيين ، أو بعبارة أخرى يعرض نفسه على النقاد والجماهير ! وثابر من أجل هذه الخطوة كما اعتاد فى كل خطى حياته ، حتى أتيح له أن يعرض فى المكان الذى طالما حلم به نموذج تمثال « عايدة » الذى نحته من وحى أوبرا « فردى » !

وتحقق له ما اشتهى من ثناء الصحف الفرنسية والعالمية ، وتقدير النقاد لأول أثر فنى مصرى يطرق أبواب معارضهم ! وفى صيف ذلك العام عاد إلى القاهرة فاستقبله أساتذته وأصدقاؤه بالترحاب للنصر الذى أحرزه لبلاده فى باريس ..

أيام الجوع فى باريس !

● ثم عاد ثانية إلى العاصمة الفرنسية ، و لم تلبث أن نشبت الحرب العالمية الأولى .. فابتدأت تضيق به الدنيا عندما انقطع عنه مرتبه ، وقضى مع صديقه « فريد نجم » أياما سوداء كانا فيها من فرط الجوع يبحثان أحيانا فى القمامات عن لقمة ضالة أو بقايا طعام !

.. وتتوالى عليه أيام « الجزر » ، حتى يضطر إلى العمل فى مصانع الذخيرة — فى إعداد القنابل وحمل الذخائر — ليتقاضى مائتى فرنك شهريا نظير عمل يستغرق عشر ساعات كل ليلة ! وبعد هذا الجهد الشاق المضنى ينصرف فى النهار إلى فنه .. وتدوم هذه الحال التعسة قرابة عام !!

ثم انقضت الأيام الجافة القاتمة أخيرا .. وأقبلت فى أعقابها فترة من الرخاء العذب ، حين استدعى متحف « جريفان » الفنان المصرى ليعينه مديرا فنيا له ! فكان هذا نصرا أدبيا وماديا عظيما ، تلقت مصر أنباءه مزهوة فخورة ، وأخذت صحفها تشيد بهذا التقدير للنبوغ المصرى فى باريس .. وبلغ من تأثر « مختار » باعتزاز وطنه به أن بدأ يعاوده التفكير فى العودة إلى مصر .. غير أنه أراد قبل العودة أن يشيد لوطنه صرحا يختلف عن تلك التماثيل التى يستلهمها بعضهم من التاريخ . وهذا الصرح هو إقامة تمثال لمصر الثائرة وهى تتأهب للمعركة وتستعد لمناضلة

المستعمرين !.. وفى لحظة من لحظات الإلهام عنت له فكرة الرمز لـ « نهضة مصر » بأبى الهول والفلاحة المصرية ..

ملهمته الجديدة : « مارسيل »

● وفى تلك الفترة التقى مختار بالحسناء « مارسيل » ، ابنة أحد رجال الفن فى باريس ، فأعجبت به وصارت تتردد على مرسمه وتشجعه وترقب عمله ، وقد بهرها حماسه و « حرارته النفسية » .. ولكنها لم تجد من وقته لحظة ملائمة لتعبر له عن حبها ، من فرط اندماجه فى عمله بكل طاقته .. فلما انتهى أخيرا من عمله ثاب إلى قلبه ، فأحس قربها منه وإشراقها فى أفق حياته !.. ثم نما حبهما على الأيام فبقيت ترافقه فى كل الظروف و لم تتخل عنه قط كما فعلت سابقتها !

فرنسا « تكتشفه » لمصر !

وجاء الوفد المصرى إلى باريس للدعاية لقضية مصر ، فدعته الجماعة المصرية هناك إلى حفلة تكريم قدمت فيها « مختار » إلى أعضاء الوفد ، الذين شاهدوا روائع فنه المعروضة بمتحف « جريفان » ولمسوا تقدير الهيئات الفنية الفرنسية له ، فأدركوا أن هذا الشاب المجهول هو من دواعى فخر مصر وأنه يجب أن يحتل فى بلاده المكانة التى تليق به ..

وبالفعل عاد بعض رجال الوفد إلى مصر وفى عزمهم أن يقدموه

ومن القوائم التى تتوالى تطل روح مصر التى تنبعث فى الوقت المناسب فتأتى بالمعجزات ! فقد اكتتب لتمثال نهضة مصر كل مصرى تظله سماء مصر .. اكتتب له صغار العمال ، والباعة الجائلون ، والنساء الفقيرات .. حتى المتسولين على الأرصفة وفى الطرقات !

فى هذا الجو الزاخر بالحماسة تكونت لجنة التمثال برياسة حسين رشدى رئيس الوزراء ، وعضوية واصف غالى وويصا واصف وحافظ عفيفى وأمين الرافعى ومحمد محمود خليل وعبد الخالق مدكور وفؤاد سلطان وعبد القوى أحمد .. ورأى مختار أن ينحت التمثال من الجرانيت ، أى من هذا الحجر الصلب العنيد الذى أقام منه المصريون القدماء آثارهم ، كيما يكتمل بذلك الرمز لمعنى النهضة والبعث !!

المجد يدين لمختار !

وبدأ العمل فى إقامة التمثال ، يمده الشعب حينا بتبرعاته السخية ، وتعينه الحكومات الموالية بالمال حينا آخر .. وأخذت ساحة التمثال تحظى بزيارات متكررة من رجالات مصر الأفذاذ ، على رأسهم : سعد ، وعدلى ، ورشدى ، وثروت !.. فتحقق بذلك لمختار أول فوز وطنى شعبى . وفى ٢٠ مايو سنة ١٩٢٨ أزيح الستار عن تمثال « نهضة مصر » فى احتفال رسمى ألقى فيه رئيس الوزراء خطاب الدولة .. وكتب مختار للحكومة يتنازل عن ملكية التمثال ، فقال فى خطاب له وجهه إلى الجهات المسئولة قبل إزاحة الستار : « إن تمثال نهضة مصر ليس ملكا لأحد ، و لم

يقم بصنعه فرد واحد ، بل هو ملك لمصر .. مصر كلها صنعته ، وسترفعه على قاعدته » .

وبعد إزاحة الستار ترددت فى البرلمان رغبة فى مكافأة « مختار » على عمله ، وتقدم أحد أعضاء مجلس الشيوخ بهذا الاقتراح .. فصرح رئيس الوزراء بأن « الفخار والمجد الذى ناله مختار بإقامة تمثاله فى أكبر ميادين العاصمة يفوق كل مكافأة مادية » .

روح تتغذى بالصداقات .. والحب

● **كانت** فى حياة مختار ظلال تدل على عمق مشاعره وتكشف عن خلجات نفسه وعن القيم الإنسانية الرفيعة التى يزخر بها قلبه . وحين تتجمع هذه الظلال تجدها تأتلف فى الصداقة ، والحب ، والمشاعر التى تمده بها مصاحبة الخالدين ..

ولم يكن مختار من هذه الطائفة التى تثقلها أوضاع المجتمع وقيوده ، وإنما هو روح متحررة محلقة فى أجواء الفن العريضة ، ينشد المحبة ويصغى دائما إلى صوت قلبه . ولم يكن يقيم بينه وبين أصدقائه حواجز أو فروقا البتة ، فأحزانهم أحزانه وأمانيهم أمانيه ! وقد حفلت حياته بصداقة فاتنات كثيرات من النساء : فمن الفاتنة الأمريكية « فيراكوبر » إلى راقصة الباليه الروسية « أنا بافلوفا » إلى غيرهما ..!

وكان إذا ارتحل إلى باريس يجد إلى جانبه « موريه » العجـوز ، فيتذاكران معا مراحل حياتهما منذ التقيا لأول مرة فى شارع « فوجيرار » حيث كان « موريه » يعمل مع النحات « اسكولا » . وكانت مثل هذه الصداقات تجعله يحس بأن الحياة جديرة بأن تحب !

وإلى جانب هذه الصداقات كان يقوم فى حياته ظل دائم من الحب يمده به قلب « مارسيل » الكبير ، وقد هام بها منذ التقيا عندما كان يعمل على إقامة « تمثال النهضة » ، فملأت عليه حياته ووقفت إلى جانبه فى أيامه الحالكة ، وشاركته أفراحه وأحزانه .. وقد تبادل وإياها خطابات دلت على أن مختارا لم يكن نابغة كمثال فحسب ، بل كان أديبا مرهف الحس ، وشاعرا متدفق الشاعرية رقيق التعبيرات ..!

وتظل موجات المد والجزر تتقاذف مشاعره : فيأس يعقبه رجاء ، ورجاء يعقبه يأس !.. وبسمات ودموع .. وسماء صافية وغيوم .. وعواصف ورعود !.. وقد تخلو حياته من الرياح والعواصف أحيانا ، ولكن الضباب يكتنفه فتفتر حماسته وتنكمش نفسه فى وحدتها ، كما قال مرة : « إنى أعيش كذئب عجوز : أدخن ، وأحلم ، وأعمل ، وأستدفئ .. وأنسى حياتى ! » .

الامتحان الأعظم !

● **وبعد** أن أقام مختار الأساس لمجده وأدى دوره كرائد لحركة جديدة فى بلاده ، كان لا بد له أن ينصرف لتدعيم فنه . فهو الآن فى الثامنة والثلاثين من عمره ، أى فى السن التى كان فيها الشوامخ من العباقرة يمضون نحو ارتقاء القمة ! وكانت فورة الشباب قد هدأت فى كيانه وبدأ يستقبل مرحلة من الاكتمال والنضوج . وفى استطاعته الآن أن يعرض آثاره فى الساحة العالمية التى تصدر منها الأحكام الفنية ــ باريس ! ــ وهى خطوة جريئة خطيرة فى حياة أى فنان : فهو إما دخل الساحة مكرما فارتفع اسمه

وعلا صيته وسما فنه .. وإما أهمل وتوارى إلى غير رجعة إذا ما صدر حكم باريس ضده ، فهوى باسمه !..

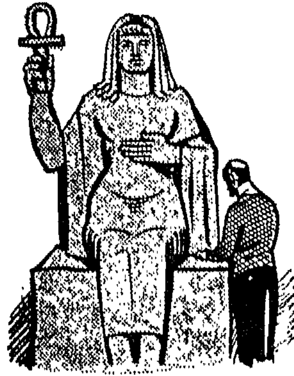
ولكن « مختار » يريد أن يجتاز هذه المرحلة ظافرا .. وعليه ففي أحد أيام شهر مارس سنة ١٩٣٠ كان أربعون تمثالا من أعمال مختار تتألق فى قاعة « برنهيم الصغير » فى « سانت أو نوريه » ، وحولها حشد من رجال الفن والأدب والسياسة والمجتمع فى العاصمة الفرنسية ..!

وفى أركان القاعة وقف « النقاد » ! وكان يوما من أخطر الأيام التى مرت فى حياة مختار .. انتهى بانتصاره انتصارا عالميا عظيما ، توج باقتناء الحكومة الفرنسية لتمثاله « عروس النيل » بغية عرضه فى أحد متاحفها بقصر « التويلترى » ، حيث تمثل كل المذاهب الفنية .. فكان هذا الوسام الرسمى الرفيع بمثابة اعتراف « عالمى » بميلاد الفن المصرى الحديث ..!

يهجر المجد فى الغربة ، ليخلد كفاح سعد !

● **على** أنه إن كانت تماثيل مختار التى عرضها فى باريس قد أهلته للارتقاء نحو القمة ، إلا أنها ستبقى دائما فى محيطها الخاص ، أى فى المعارض وفى بيوت الهواة وقاعات المتاحف ! .. بينما مختار يريد الآن أن يخاطب الجماهير — فإن للميدان العام زهوه ومجده وبريقه الخاص ! — وعليه فقد بهرته فكرة العودة إلى هذا الميدان ، فسعى إلى تنفيذها .. وغادر باريس بالفعل تاركا كل هذا التقدير والمجد ، ليقيم فى مصر « تمثال

سعد » !!



مختار يعمـــل فى تمثال «جنوب الوادى » بقاعدة تمثـــال سعد بالاسكندرية

وكانت البوادر طيبة ، فإن كفاحه من أجل استقلال الفنان ورفعة شأنه ودفاعه عن كرامته عند إقامة « تمثال نهضة مصر » ، قد أحدث أثرا .. وها هى ذى الحكومة تترك له الحرية الكاملة فى العمل ، وتتعاقد معه على أن يتولى كل ما يتصل بالتمثالين المزمع إقامتهما فى القاهـرة والإسكندرية . وإذن فسيمضى فى عمله دون أن يضطر إلى مناضلة رجال وزارة الأشغال كما حدث فى تمثال نهضة مصر ، ولن يحتاج إلى ارتداء جلد الدب الثائر ليصدهم عنه ويمنعهم من التدخل فى شؤونه .. ومضى يعمل .. إنه الآن يقف إزاء سعد ، لا يعنيه منه شخصه وطباعه ومشاعره وعاداته ، وإنما يعنيه أن يقيمه رمزا لكفاح الأمة وطموحها ، رمزا لتتجمع مصر حوله فى مرحلة حاسمة من تاريخها . وقد حرص مختار على أن يسجل هذه المرحلة من التاريخ فيسجل بها معنى سعد . وهكذا

جعل تمثال الإسكندرية رمزا لتحطيم القيود ، وأقام تمثال القاهرة يطل على النيل وقد لاحت من مطلع الطريق إيماءة يده كأنها إشارة البعث والانتصار!..

ولكن .. لكن يد الطغيان امتدت إلى عمل مختار فى التمثالين عندما كانت تتعاقب على مصر حكومات ديكتاتورية تناوىء مذهب سعد .. وبدأت حلقة المضايقات التى انتهت بإلغاء العقد المبرم بينه وبين الحكومة ومنع نقل أحجار الجرانيت من محاجرها فى أسوان لإتمام هذا العمل الوطنى الكبير !

ولكن مختارا لا يحتمل غضبة السلطان ولا يطيقها ، فيرتحل عن مصر إلى باريس .. ولعله كان يتوقع هذه الحوادث حين كتب قبيل ذلك لصديق يقول : « لم يبق الآن غير القليل ، وإذا لم أنف من مصر قسرا بتحريض أو فتنة فسأنفى نفسى بنفسى لأنى لا أحب الحياة إلا فى ظل حرية الفكر وفى اكتمال ممكناتها » .

بداية المرض ..

● وفى باريس أقبلت من جديد أيام « الجزر » فى حياة مختار ، وبدأ يدهمه الجفاف .. فظهرت عليه أولى معالم المرض فى سنة ١٩٣٠ ، حين أخذ الإعياء يتسرب إلى نفسه وبدأ يحس أوجاعا مضنية تنتابه بين الحين والآخر .. وهو يطرق أبواب الأطباء ليكشفوا سر هذه الأوجاع ، غير أن شيئا ظاهرا لا يلوح لهم ، فيردون آلامه إلى كثرة المجهود وشدة

المقاومة ، وينصحون له بالراحة والهدوء ..

وهكذا ينقضى العام بين النور والظلام ، ويستقبل مختار العام الثانى وقد استحال هشيما من وطأة المرض ، فيهجر فرنسا إلى مصر فى الشتاء يلتمس فى دفئها الشفاء لجسده المكدود .. حتى يسترد شيئا من صحته فينطلق مرة أخرى إلى باريس وقد ثابت نفسه إلى ظل من الطمأنينة ..

وهناك حاول الفنان أن يتم بعضا من أعماله التى بدأها ، ولكن ذراعه قد أثقلها المرض ! وفى يوليو سنة ١٩٣٣ أجريت له جراحة أضنته ، وبرغم ذلك فقد انتشرت بعدها سموم الداء فى جسده فقضى بين شدة المرض وفزع الموت ليالى حالكة السواد .. وبدأ المستشفى يحتل فى حياته مكان المتحف ، واستبدل عيادات الأطباء والصيدليات بالمعارض والمكاتب ودور الفنون ..!

الرحلة الأخيرة !

وهكذا عاش تلك الفترة التعسة من حياة الإنسان ، التى تجبره فيها نذر الفناء على التخلص من كل مسئولياته ، وهجر كل آماله ورغباته ومعاركه ، ليعبىء كل قواه لكفاح الموت ..

ولم يجد الأطباء سبيلا لشفائه .. فنصحوا له بالعودة إلى وطنه ، عله يجد فى تربته الشفاء . فاستجاب لنصيحتهم وأعد نفسه للرحيل ، بعد أن ودع أصدقاءه وألقى نظرة عميقة حزينة على « مرسمه » ، وتطلع برثاء وألم إلى « ملكة سبأ » — تمثاله الذى لم يكتمل ! — ثم نظر إلى صديقه

(الكسندر ديماس)

العجوز « لويس موريه » وقال له : « إن هذه الآثار أمانة عندك فهي ملك الفن الذى وهبته حياتى ، فارعها واحفظها لذكراى إذا بطش القدر بى ولم أعد .. » .

وكانت رحلة الباخرة التى تقله فى هذه المرة إلى أرض الوطن أتعس رحلات حياته . ففى كل مرة كانت العودة إلى مصر تقترن بآمال ومهام وذكريات . ولكنه فى هذه المرة يعود مثقلا بآلام المرض ، فلا آمال ولا مهام .. ولكن هناك ذكريات !!

ولما رست الباخرة فى الظلام لمح على ضوء المصابيح الباهتة صديقيه محمود سعيد وجان نيكولاييدس ، فأقبل عليهما متدثرا بعباءة الفنانين كبطل قديم أثخنته معركة بالجراح ، وراح يروى لهما قصة كفاحه مع المرض والموت .. ثم يحاول أن ينسى فيلوذ بأذيال الذكريات !

وفى الصباح مضى به القطار إلى القاهرة ، وعلى الرغم من سوء الحال ونفاد المال من يده فإنه لم يفقد كبرياءه .. وهو يستقر كعادته فى فندق « الكونتيننتال » ، ولكن وطأة المرض تحجبه فى غرفته فيقبع فيها وحيدا .. وحين يقبل الليل تمر به ذكريات من الليالى الساحرة التى قضاها فى القاهرة : الساعات الزاخرة المفعمة التى قضاها مع حافظ إبراهيم ورفاقه فى « الكافيه ريش » ، والاحتفالات المرحة التى كان يقيمها فى « بار اللواء » ، والساعات التى كان يقضيها فى ندوة « دار السياسة » مع جماعة من الأصدقاء ، وما كانت تزخر به من أحاديث عن الفن والأدب ومستقبل مصر .. والاجتماعات التى كانت تتأرج بفتنة الشعر وعبير الزهور فى دار « جماعة الخيال » ..

أين ذهب ذلك كله ؟.. لقد ضاع وتبدد ، و لم يبق من هذه الأمكنة غير أشباح باردة : « الكافيه ريش » ذهب عنها روادها وتغير منها كل شيء إلا لافتة تحمل اسمها .. و « بار اللواء » يقضى أيام شيخوخته فى أضواء خافتة ، و « دار السياسة » قد أغلقت وتفرق روادها .. ومبنى « جماعة الخيال » يحتضر وتقترب منه معاول الهدم .. وقد ترتعش نفس مختار من برودة هذه الأشباح ، فلا يرده عنها غير صوت صديق قادم لزيارته ..

صراع مع الموت

● **وبعد** أيام من وصوله استأجر منزلا بمصر الجديدة على مقربة من الصحراء ، التماسا للشمس .. وهناك كان جماعة من الأصدقاء يترددون عليه ويؤنسون وحدته ، فكان يتحدث إليهم عن مشروعات المستقبل : عن تمثال « الإسكندر » الذى يزمع صنعه ليقيمه عند مدخل الإسكندرية .. وعن معرضه القادم الذى اختار له مكانا مدينة « برلين » ، كى يقدم الفن المصرى إلى الشعب الألمانى .. وعن تمثالى « عرابى » و « كليوباترة » اللذين يفكر فيهما .. الخ .

على أن شبح الموت كان يعود ليقطع عليه أحلامه ويلوح أمام ناظريه أحيانا بصورة رهيبة ، فكان لا يقوى على تصور العجز والفناء ..

نجم أفل !

وفى ٢٧ مارس سنة ١٩٣٤ كانت القاهرة تستقبل أحد أعيادها وقد التقت فيه بهجة العيد ببهاء الربيع ، والناس يتبادلون أطيب التمنيات .. بينما كان مختار فى غرفته بالمستشفى الفرنسى يعانى أوجاع المرض ولا يقوى حتى على الابتسام ، وقد تمدد فى جانب ضئيل من السرير وليس ثمة دليل على أنه لم يزل حيا سوى تلك الحشرجة الذبيحة والأنفاس الخافتة الباهتة التى تتردد فى صدره ..

كلا ! ليس هذا مختار الذى عاش مفعما بالحياة !.. ليس هذا مختار الذى نحت الجرانيت وتحدى الصعاب ..

وارتسمت على عينيه سحابة قاتمة . وتراخت يده كأنها فى حلم تعد عجينة تمثال .. وبارحته آخر ومضة من الحياة !!

فى تلك اللحظة كان شفق الغروب الحزين قد هبط على الأرض وألقى عليها ظلا من الصمت الرهيب ، قطعته أصوات تنتحب . إنها أم مختار تبكى وحيدها ، وإلى جانبه شقيقتاه تتشبثان بيديه وتتحايلان عليهما بالتدليك لتمداهما ببعض الدفء الذى لم يعد فى حاجة إليه !!

وفى الصباح الباكر كان النبأ قد شاع فى الدوائر الفنية بمصر فتوافد الأصدقاء إلى المستشفى يلقون على الصديق الراحل نظرة الوداع .. وأراد بعضهم أن يحتفظوا ببعض ملامح صديقهم الراحل ، فكلفوا صديقهم

وزميلهم « أنطون حجار » بصب صورة من الجبس لوجهه ويده . ولكنها لم تكن صورة مختار وملامحه .. بل كانت صورة الموت وملامحه !

واتخذت التدابير اللازمة لنقل جثمانه إلى بلدته ، فحمل النعش إلى ميدان المحطة حيث اجتمع فى ميدان تمثال النهضة خليط من جميع الأجناس والطبقات ، يودعونه الوداع الأخير ..

ومضى الموكب بالنعش إلى جانب التمثال ، ولأول مرة لم يقو صانعه على أن يلقى عليه هذه النظرة التى تعود أن يرمقه بها فى عودته إلى القاهرة وخروجه منها . . .

مضى صامتا ، فى حين تحدثت الذكريات !

وصحبه الأصدقاء إلى مثواه الأخير ، حيث وورى التراب تغمره زهور الربيع ، رمزا لشبابه الذى اغتاله الموت ...

ولم تقم فوق التراب الذى استقر به أية علامة من علامات التمجيد والتكريم ! .. ولكن الأرض الذى صار جزءا منها قد ألفت أن تنبت كل ربيع زهرة لا يلبث أن يعتريها الذبول .. تقف إلى جانبها صبارة مخضرة الأوراق !!

حياة مختار فى سطور

١٨٩١ (١٠ مايو) : ولد ببلدة طنبارة ، مركز المحلة الكبرى .

١٩٠٢ : قدم إلى القاهرة .

١٩٠٨ (مايو) : دخل مدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة .

١٩١١ : سافر إلى باريس مبعوثا للالتحاق بأكاديمية الفنون الجميلة .

١٩٢٠ (مايو) : عرض نموذج تمثاله « نهضة مصر » بمعرض الفنانين الفرنسيين ثم عاد إلى مصر .

١٩٢٦ (مايو) : عرض تمثاليه « لقية فى وادى الملوك » و « كاتمة الأسرار » بمعرض الفنانين الفرنسيين ، ولقى نجاحا يعد خطوة هامة فى حياته الفنية .

١٩٢٨ (٢٠ مايو) : احتفل بإزاحة الستار عن تمثال « نهضة مصر » .

١٩٣٠ (مارس) : أقام معرضه فى باريس .

١٩٣٠ (مارس) : تعاقد مع الحكومة على إقامة تمثالى سعد .

١٩٣٤ (٢٧ مارس) : صعدت روحه إلى بارئها .





أعلام الفلسفة

فريدريك
نيتشة

الفيلسوف الذى بشّر بفلسفة القوة
.. وابن القس الذى تحدّى الله!

فيلسوف عبقرى .. أم ملحد مجنون ؟

● كان تبسيط الفلسفة ، ونشر سير حياة أعلام الفلسفة ، وكفاحهم فى سبيل تعميم نظرياتهم ، من أهدافى .

واليوم يسرنى أن أقدم لك فيما يلى سيرة الفيلسوف الألمانى الجبار « نيتشه » .

وقد وصف « إميل فاكيه » — عضو المجمع العلمى الفرنسى — نيتشه ، فقال : « ما من مفكر كان أشد إخلاصا من نيتشه ، فما بلغ أحد قبله ما وصل إليه وهو يسبر الأغوار فى طلب الحقيقة ، غير مبال بما يعترض سبيله من صعاب » .. وهنا تكمن عبقرية « نيتشه » ، بل جبروته .. كان مثقلا بالعقد النفسية ، والضعف البدنى ، والأمراض ، فلم يشأ أن يعيش حياة العاجزين ، بل اجتاح تلك العقبات ، واستمد منها فلسفة هزت دنيا الفكر .. استمد من الضعف دعوة إلى القوة ، والحرب ، وعدم الرحمة ، وحث الإنسان على أن يرقى فوق مستواه العادى .. وناوأه أهل جيله فوصفوه بالجنون ، فإذا به يصيح : « إن فى الجنون حكمة » ، ثم يمضى مواصلا كفاحه .. ورموه بالكفر ، ثم أدركوا — بعد موته — أنه إنما كفر بالأصنام التى أقامها بعض المتخبطين من رجال الدين ، وكان فى كفره هذا يمجد الله الحقيقى !

يتمرد على القدر منذ السابعة من عمره !

● **سمى** ، حين ولد : « فردريك فيلهلم » ، تيمنا بملك « بروسيا » .. ومع ذلك فإنه لم يكن بروسيا ، وإنما كان بولندى الأصل ، ينحدر من أسرة « نيتسكى » ، وهى أسرة عريقة فى الأرستقراطية ، ظلت تكافح جيلا بعد جيل لتمثل « السوبرمان » ، أى الإنسان المثالى ، السامى ، الذى يرقى إلى مستوى فوق مستوى الإنسان العادى ، ويقترب من مرتبة أنصاف أو أشباه الآلهة ، التى كان الإغريق يرفعون إليها أبطال جبل « أوليمب » !

ولكن « فريدريك نيتشه » ــ الذى ولد فى مدينة « روكن » الألمانية فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٤٤ ــ كان فرعا ذابلا فى هذه الشجرة القوية ، فقد ورث جسمه الضعيف عن أبيه الذى كان قسا ، وكان مصابا بالصرع ، وضعف البصر ، ونوبات الصداع التى كانت تجعله زائغ البصر غير مستقر النظرات .. وقد أخذ ابنه عنه هذه المتاعب التى كانت سببا فى مصرع القس ذات ليلة ، إذ كان يصعد درج منزله ، حين تولته نوبة الصرع فجأة ، فترنح ثم سقط على ظهره ، واصطدم رأسه بالدرجات ، فأصيب بشلل فى المخ . **وكان « نيتشه » فى ذلك الوقت فى السابعة من عمره ، فاستحوذ عليه الذهول وهو يرى والده الصريع يحمل إلى الفراش . ثم ظل يرقبه شهورا طويلة وهو يعانى آلاما مبرحة**

بطيئة،ويرى قواه العقلية تضمحل بالتدريج ، وأخيرا شاهده وهو يموت ، ثم وهو يوارى رمسه .. كل هذا رآه جيدا ، فظلت ذكراه المؤلمة مطبوعة فى ذهنه طيلة حياته ! .. ولعلها كانت المصدر الأول لروح التمرد على القدر ، التى سادت فلسفته ومؤلفاته !

الليل والوحدة .. صديقاه الحميمان !

● **وأصبح** « فريدريك نيتشه » وأخته « إليزابيث » خاضعين — بعد موت أبيهما — لنفوذ أربع سيدات حزينات : أمه ، وجدته ، وعمتيه .. واستولت عليه حالة نفسية سيئة ، كان مبعثها الأول عجزه عن مشاركة الناس فى رياضتهم ولهوهم بسبب ضعف عينيه ، وما كان ينتابه من صداع فظيع ، موجع . واستنفدت الآلام قواه ، فأصبح فى المدرسة موضع سخرية زملائه الذين كانوا يتندرون بجسمه الضئيل ورأسه الضخم . ولم يجد أمامه من يخلص له الود سوى أخته ، ففيما عداها لم يكن له صديق أو صاحب يبثه ذات نفسه ، فعاش فى وحدة تكاد تكون تامة . وكان يخشى زملاءه من الأولاد ، ولم يكن يعرف كيف يحدثهم أو يشاطرهم لعبهم .. بل إنه ما كان يفهم الألفاظ والعبارات الشائعة التى كان الصبية يتندرون بها ويتمازحون . فلا عجب أن رأيناه يكتفى باللعب مع أخته ، فإذا كانت غائبة أو مشغولة دفن رأسه فى الكتب !

ولعله كان يؤثر هذا ، إذ كان مولعا بالقراءة .. لم يكن يرى إلا ومعه كتاب ، مثله فى ذلك مثل أبيه . وكانت أمه تفخر بذلك وتتمنى أن يحذو

حذو أبيه فيصبح قسيسا ، إذ لم يكن ينقصه شيء من صفات رجل الدين : فقد كان فصيحا فى موضوعات الكبار — رغم عيه فى موضوعات أقرانه — وكان ذا صوت مؤثر مقنع . وكان وجهه صورة مجسمة للحزن الأزلى . وليس فى ذلك عجب ، فقد حكى عنه أن آيات الأسى والألم كانت ترتسم على وجهه عندما هبط من جوف أمه إلى الدنيا ، يوم مولده !

وكانت أمه تعتقد أنه خلق لكى يؤدى رسالة عظيمة !.. فلما شب عن الطوق ، أرسلته إلى مدرسة « بفورتا » التجهيزية ، حيث درس اليونانية واللاتينية .. بل إنه درس كل شيء — فى الواقع — عدا الحياة ! وكانت عيناه تضايقانه بضعفهما وزيغ بصرهما ، كما كان يشعر بآلام لا تطاق إذا أطال القراءة ، ولم يكن يسعه حينئذ إلا أن يرتمى على فراشه ، وقد فقد كل رغبة فى أن يعيش !.. ولماذا يعيش وهو لا يستطيع أن يظل مفتوح العينين فى النور الساطع ، بينما ضوء الشمس يبهر بصره ويدفعه إلى الصراخ من فرط الألم ؟.. كان الليل وحده هو الذى يمنحه الراحة والسكينة ، ففيه تطمئن نفسه وتقر عينه .. وكان يقضى الساعات الطوال فى غرفة نومه — إذا ما هبط الليل — محدقا فى الظلام ، مستمتعا بالسكون والهدوء .. كان الليل هو صديقه الوحيد .. الليل والوحدة !

غرق فى اللهو والمجون .. ثم طلقهما !

● راكتشف هواية تريح أعصابه خلال ساعات الوحدة ، ألا وهى الموسيقى . فكان كلما عزف أو سمع غيره يعزف ، غرق فى بحار من الأحلام ، ووجد فى الأوهام معينا من النشاط كان يفتقده فى عالم الحقيقة ، فعاش فى خيال المغامرات التى سمعها عن أجداده ، وفى المعارك التى خاضوا غمارها !.. وفى روعة هذه الأوهام وجلالها ، ذاق طعم القوة والعنف ، ولكن من غير ألم .. ولو أنه كان يشعر بالألم فى ساعات يقظته ، إذا ما عاد إلى عالم الواقع .. ولئن لم يكن هذا الألم عنيفا ، فإن أوجاعه غدت مزمنة ، واستنفدت كل قواه ، إلى درجة أن هذه الأوجاع ذاتها لم تعد تجد من قواه ما يمكنها من أن تعنف !



ومع هذا فقد كان شابا !.. وكان يريد أن يعيش !.. وكان يشعر فى أعماقه بما يشعر به الشباب من حنين إلى تذوق التجارب التى تزخر بها الدنيا ، ومن فضول ذهنى وفضول مادى أيضا — إذا أمكن ! — تلك كانت نفسيته حين دخل جامعة « بون » ، وبدأ يشرب الخمر ، ويروى النكات الممجوجة ، ويقرض الشعر المبتذل ، وأحيانا يـذهب إلى المواخير . وفى تلك الأثناء قرأ أشعار « بيرون » .. وتعلم المبارزة .. على أنه ما لبث — بعد شهور قليلة — أن طلق حياة اللهو والعبث والمجون ، وأشاح بوجهه عن الدنيا ، وانزوى عن المجتمع ، مستأنفا حياة الوحدة .. وبدأ يضيق بنفسه ويحتقرها !

ثم انتقل إلى جامعة « ليبزج » ، حيث انهمك فى دراسة اللغات ، واعتزم أن يكرس حياته للتدريس وليس للوعظ كما كانت تريد أمه !.. إذ كان فى واد وأمه فى واد آخر .. كانت الشكوك تساوره فى كل ما يتعلق بالدين ، فبدأت نفسه تنصرف عن الإيمان . وكان يعجب من حاله ، ويتساءل قائلا : هل من الممكن حقا أن تتقمص « روح قوية » ، مثل ذاك الجسد الهزيل الضعيف الذى منى به ؟.. كان يتوق بحرارة إلى القوة الجسمانية ، وإلى حيوية الشباب .. وكان ينفر أشد النفور من هذه الحقيقة ، وهى إنه ولد كهلا !.. كان يريد أن يخوض خضم الحياة الزاخر بألوان المتعة .. كان يصبو إلى أن يشعر بنبضات تلك الحياة تخفق قوية فى صدره !.. ولكن قدميه لم تستطيعا الحراك ، وظل قابعا على شاطئ الأحداث يرقب تواليها دون أن يساهم فيها ! .. وقلما كانت تساوره الشهوة الجنسية ، مما كان يؤرقه ويعذبه : لماذا يجد نفسه محروما من ملذات

الحياة ومسراتها ؟.. لماذا توصد فى وجهه أبواب المتع الحسية ؟

هل الخطيئة من ابتكار متهوسين ضعفاء ؟

● ومن هنا بدأ يتمرد على الدين ، لأنه يشجع على إنكار ملذات البدن . ووجد فى هذا التمرد أداة للدفاع عن ضعفه . **ألم يبشر القديسون باحتقار رغبات النفس وشهواتها ؟.. ولكن لماذا يبشرون بذلك ؟.. وأجاب « نيتشه » عن هذا التساؤل بقوله : « أليس من الجائز أنهم فعلوا ذلك استجابة لما كانوا يشعرون به من نقص وعجز — ومكره أخاك لابطل ؟!** » وهكذا راح « نيتشه » ينزلق فى طريق خطير وعر . وأخذ تفكيره يقوده إلى آفاق غريبة غير مطروقة ، فجعل يتساءل : **أليس من الجائز أن يكون بعض « المجاذيب » ومختلى التفكير قد ابتكروا فكرة « الخطيئة » ليبرروا بها هوسهم الذهنى وعجزهم الجسمانى ، فإذا بالأجيال المتعاقبة تصدقهم وتسير كالخراف وراء دعوتهم ؟.. وأليس من الجائز أن تكون الأخلاق المزعومة مجرد « خدعة » ؟.. أليس هدف الحياة هو السعادة ؟.. وما دمنا قد قبلنا أن نعيش ، فهذا يعنى أننا قبلنا الحياة برمتها ، دون تمييز بين حلوها ومرها !**

ووجد « نيتشه » نفسه فجأة أمام سؤال رهيب ، جمد له الدم فى عروقه : وما وظيفة الدين إذن ؟.. وأجاب عن هذا السؤال الرهيب بجواب أشد منه رهبة : إن الدين لا يبشر بالحياة ، وإنما يدعو — بدلا من ذلك — إلى انكارها !!

وماذا يضمن الحياة إذن ؟.. تضمنها « إرادة » الحياة . وقال « نيتشه » لنفسه إنه إذا استطاع أن يوجد هذه الإرادة بدرجة كافية ، غدا بوسعه أن يتغلب على صداعه وعلى زيغ بصره وعلى آلامه !.. إذ أن « الإرادة » وحدها هى التى تستطيع أن تجعل منه رجلا حرا .

الإنسان يستطيع التغلب على المرض ، بقوة الإرادة !

● **هذه** هى الأفكار التى كانت تفرخ وتتوالد فى غرفة الرجل المريض .. وكم من أفكار مشابهة كان المرض يوحى بها لأسراه على أميال عديدة من مخدع « نيتشه » .. ففى أمريكا قام بعض الناس يبشرون بأن الإنسان يستطيع التغلب على مرضه بقوة الإرادة ، فكانوا رواد العلاج بالإيحاء الذهنى .. وفى الجانب الآخر من العالم — فى الهند — قامت جماعة من الكهنة بتدريب إرادة الإنسان حتى جعلوها تأتى من الأعمال ما يشبه السحر : فكانوا يوقفون تنفسهم ، ويسلطون على أنفسهم إرادة الموت ، ويدفنون أنفسهم ساعات عديدة .. ثم يسلطون على أنفسهم إرادة الحياة فيبعثون من جديد !.. وكانوا يسيرون على الجمر الملتهب دون أن يحسوا ألما ، لأنهم استبعدوا من ذهنهم فكرة الألم .

وسيطرة قوة العقل على أمراض الجسم ومتاعبه ليست جديدة . فقديما كان حواريو السيد المسيح يحتملون قسوة الجوع فى الصحراء ، ويصمدون لضرب السياط ، ويستقبلون أنكى أنواع العذاب والاضطهاد ، بجَلَد وسكينة . أو لم يرتض المسيح ذاته أن يصلب ،

تدفعه إلى ذلك « إرادة » تخليص الإنسان من خطاياه ؟

وقد اعتنق الفيلسوف الألمانى «آرثر شوبنهور » هـذا المذهب ـــ مذهب « سلطان الإرادة » ـــ وقال إنه العامل المسيطر على الحياة ، فإن النبات والحيوان والإنسان لا يتكاثرون ويتناسلون إلا بسبب وجود « إرادة » مسيطرة تدفعهم دفعا إلى الحياة . ولما كان « شوبنهور » يميل إلى التشاؤم ، ويعتقد أن الحياة عديمة الخير والجدوى ، فقد أعلن أنه إذا حول الإنسان هذه الرغبة فى الحياة إلى رغبة فى الموت ، أى أنه إذا « أراد » أن يوقف الزواج والنسل ، لانتهت الآلام فى هذه الدنيا ، ولوضع البشر حدا لما يقاسونه من عذاب !

يفر من الكوليرا ، ومن الخدمة العسكرية !

● **وتلقف** « نيتشه » رأى « شوبنهور » عن الإرادة ، ولكنه حول هذا الرأى من فلسفة سلبية إلى فلسفة إيجابية : فالإنسان ينبغـى أن لا يستخدم إرادته ليموت ، بل ليحيا ، ومن الجبن أن « يريد » الإنسان الموت ليتخلص من آلامه ، بل إنه لمما يزيده سموا ونبلا أن يريد الحياة على الرغم من الآلام والأوجاع !

.. لقد وجد نيتشه الآن معنى لحياته ، فعقد العزم على أن يخوض الحياة مظفرا . ومع ذلك فقد كانت نوبات اليأس والهلع تستولى عليه من حين لآخر ـــ إذ لم يكن قد تشبع بعد تشبعا تاما بمذهبه الجديد ـــ وعندما اجتاحت الكوليرا مدينة « ليبزج » استحوذ عليه الرعب ففر إلى مكان

بعيد ، وهو يخال أن الموت يترصده فى كل طريق ! .. ولما استدعته حكومة « بروسيا » للخدمة العسكرية ، طارت نفسه شعاعا وتوسل إليها أن تعفيه ، بحجة أنه ابن أرملة وليس ثمة من يعولها سواه . ولكن ذلك لم يجده فتيلا ، فقد جند فى سلاح الفرسان ، حيث قضى بضعة شهور فى التدريب ، إلى أن سقط عن ظهر جواده يوما ، وتمزقت إحدى عضلات صدره .. وحينئذ تنفس الصعداء ، وأدرك أن الفرصة سنحت لكى يطلب إعفاءه من الخدمة وتجنب ما فى الحياة النشطة من مخاطر ، وأن يخلد إلى مكمنه السلبى فى جسده العاجز !

وما أن سرح من الجيش حتى عاد إلى الحياة الجامعية . وسرعان ما وصلت أنباء تفوقه فى اللغات إلى مسامع جامعة « بال » ، فعرضت عليه كرسى اللغات — مع أنه لم يكن قد تجاوز الرابعة والعشرين من عمره ! — فقبل هذا المنصب ، وعاش قريرا فى الجو الجامعى الهادئ فترة من الزمن . ولكن نفسه المتمردة ، المتقلبة ، عادت تثير له المتاعب من جديد .. إذ ردته إلى التفكير فى موضوع قوة الإرادة . وأخذ يبحث عن ميدان يعلن فيه أفكاره وآراءه . وتبين له أن هذا الميدان لا يمكن أن يكون فى جو اللغة اللاتينية واللغة اليونانية ! .. وراح يحلق فى سماء الأحلام ، وهو يلقى على الطلبة محاضراته فى حجرة الدراسة .. ولكنه أفاق فجأة من أحلامه على صوت الأحداث المثيرة التى بدأت تقع فى وطنه : فقد أعلنت الحرب بين ألمانيا وفرنسا !

يجند للحرب .. ثم يعمل ممرضا للجرحى !

● **وذات** يوم رأى فرقة من الفرسان البروسيين تسير إلى جبهة القتال ، وفى هذه اللحظة بالذات بدأت فلسفته كلها تتبلور وتأخذ شكلها النهائى . وقد كتب فى هذه المناسبة يقول : « لقد شعرت ــ لأول مرة ــ بأن أعظم وأقوى إرادة للحياة لا تجد لها متنفسا فى مجرد النضال التافه من أجل البقاء ، وإنما فى إرادة الحرب ، وإرادة فرض السلطان ، وإرادة السيطرة ! » .

وجند « نيتشه » فى الجيش من جديد بسبب قيام الحرب ، ولكنه أعفى من الخدمة العاملة نظرا لضعف عينيه ، فاقتصر عمله على تمريض الجرحى من الجنود . وإذ كان يميل إلى قرض الشعر ، فإن فلسفته العارمة ــ فيما يتعلق بإرادة السيطرة على الإنسان ــ ما لبثت أن استحالت إلى شعر لطيف يدور حول إرادة السيطرة على البؤس والشقاء : **فقد رأى الدم ، وشم رائحة العرق ، وجلس فى عربات الماشية ــ التى تنضح بالماء ــ مع الجنود الذين كانوا يقاسون من « الغنغرينا » ، فامتلأت نفسه تقززا ، وأفعم قلبه بالسخط ! ما معنى كل هذه المناظر البشعة ؟.. وأين هو المجد الخالد الذى بشر به رجال الدين ؟.. أليس من الأحرى أن يطلق على هذا « المجد الخالد » اسم « العذاب الأزلى » ؟**

ولما انتهت الحرب أصيب بالدفتريا ، فذهب يستشفى فى الجبال ،

وهناك أتاح له الهواء العليل فرصة للتفكير والتأمل ، ووصل إلى استنتاج فريد : وهو أن كل هذه الآلام التى يعانيها العالم لها ما يبررها . فالبؤس والألم والشقاء تجارب لا بد من أن يمر بها الإنسان لكى يعرف معنى السعادة ويتذوق طعمها !

ورغم أن حياة نيتشه كانت مأساة ، فإن روحه لم تعان من جرائها ، بل أخذت تستخلص من الألم بهجة وسرورا . كان يقول إن الإنسان يتألم لأنه يريد أن يكون حرا ، فعن طريق الألم يصل الإنسان إلى الحرية .. والأغبياء فقط ، وقصار النظر ، هم الذين يفرون من الآلام والأحزان ، ويبيعون إنسانيتهم فى سبيل حياة سهلة رخيصة وادعة !

يعد نفسه للموت .. تحت تأثير الوهم !

● **وأطلق** نيتشه شاربيه غزيرين ، لكى يخفى جوانب فمه التى تنم عن الحس المرهف ، إذ رغب فى أن يبدو للعالم فى هيئة الرجل غير المكترث ، الذى لا يبالى بشىء ، والذى يحتقر كل شىء !.. وكانت عيناه العميقتا الأغوار الضعيفتا الإبصار تبدوان وكأنهما لا تكترثان بالأشياء والأشخاص المحيطين به ، وإنما تتطلعان فى سمو واستعلاء إلى الآفاق البعيدة اللانهائية . وكان يخفى نفسه عن معظم الناس لأنه كان يخافهم ، ولكن رجلا واحدا ظل يستحوذ على لبه : ذلك هو الموسيقى الألمانى العبقرى « ريتشارد فاجنر » ، وفيما عداه كان نيتشه يعيش بدون أصدقاء ، مكتفيا بفلسفته الغريبة ، وبالظلام الخلاب ، والألم البهيج !

ولما اشتدت وطأة نوبات الصداع عليه ، عرض نفسه على طبيب ، فإذا الطبيب يجزع من كثرة هذه النوبات وحدّتها ، وإذا هو يصارحه — فى غير تبصر ولا حكمة — بأنه معرض للإصابة بشلل فى المخ ، **فاستولى الهلع على نيتشه ، وقصر طعامه على الخضر ، عسى أن يسترد صحته .. ولكنه ازداد وهنا على وهن ، وأصبح يعتقد أنه سيموت بالسرطان ، وجعل يتنقل من مصح إلى آخر . وأخيرا عاد إلى داره يائسا ، ولكنه عجز عن الهرب من نفسه !.. كان ما يزال فى الخامسة والثلاثين من عمره ، ومع ذلك فقد أعد نفسه للموت .. ألم يمت أبوه فى هذه السن ؟.. ثم ، ألم يمت الأب نتيجة لإصابته بشلل فى المخ ، مصحوب بصداع مخيف ؟**

وكتب « نيتشه » فى مذكراته أن أجله قد يحين فى أية لحظة !.. ولكن العام انقضى دون أن يموت ، وإن أصيب خلاله بأكثر من مائة نوبة أليمة . وترك وظيفته ، ويمم شطر مدينة « مارينباد » الجبلية للاستشفاء ، ولكن شمس الجنوب ألهبت رأسه فلم يحتملها وقفل راجعا إلى بلده !

الفشل فى الحب ، يعلمه الحقد والكفر !

● وفى العام التالى فارقته آلام رأسه ، فاستطاع أن يعود إلى التفكير فى الحياة مرة أخرى . وسافر إلى روما حيث وقع له حادث مثير ، قطع عليه حبال تأملاته : فقد تعرف هناك إلى فتاة فنلندية جميلة تدعى «لو فون سالومى » ، فسألها أن تقبله زوجا ، ولكنها رفضت . إذ كانت تحترمه

لعبقريته الفكرية ، ولكنها كانت تخشى فى الوقت ذاته هذا العقل الجبار الذى أوتيه . كما أن جسمه الضعيف لم يكن يرشحه لأن يغدو شريكا لمثل هذه الحسناء الناضجة الدافئة الجسد !.. وفجع نيتشه بهذا الرفض ، وظن أن رفضها كان راجعا إلى خشيتها من أن الزواج قد يعطلها عن تحقيق مشروعات معينة ، وخيل إليه أنها قد تقبل حبا حرا دون زواج . أوَ لم تكن الفتاة من أتباعه المعجبين به ؟.. ثم ألم يكن صديقهما المشترك — الموسيقى « فاجنر » — على حب « حر » مع « كوزيما » ؟.. ولكن الفتاة رفضت أيضا هذا الاقتراح ، فشعر نيتشه بالمذلة والهوان ، واعتكف مع كتبه . ثم جاءته الأنباء بأن فتاته قد قبلت هذا الاقتراح ذاته من رجل آخر لم يكن فيلسوفا !

وامتلأ قلبه حقدا على الناس — فالحقد سلاح المهزومين ! — وقال مواسيا نفسه : « إننى لم أخلق العالم ، ولم أخلق « لوفون سالومى » . ولو كنت قد فعلت لجاءا فى صورة أكمل وأفضل ! » .

ودفعه فشله فى الحب إلى طريق جديد خطير من التأملات : فقد بدأ يفكر فى الأخلاق ، وفى الخير والشر . وقال « إن جميع الأفكار الخاصة بالخير والشر لم تأت من الله ، لأنه لا يوجد إله !.. كذلك هى لم تفرض بقانون أخلاقى علوى ، لأنه لا يوجد مثل هذا القانون ، وإنما هى من بنات عقل الإنسان !.. فكلمة الخير لا تدل على صفة أخلاقية وإنما هى اصطلاح اجتماعى وسياسى اقتضته ظروف الإنسان . فأفضل الناس فى كل مجتمع هم الطبقات الحاكمة والمحاربون والنبلاء . والرجل الصالح هو الرجل الشجاع

القوى . وما قام نفوذ الطبقة الأرستقراطية إلا على قوتها . أما أسوأ الناس فى هذا المجتمع فهم الذين يشغلون المراكز الوضيعة بسبب عدم استعدادهم الجسمانى » !

سلاح « التقوى » .. لمن لا يملكون السيف !

● **ومضى** نيتشه يقول : « ولكن تطورا مشئوما أصاب تاريخ الأخلاق — مع مضى الزمن — فإذا بالمعنى الأصلى لكلمتى الخير والشر يتغير ، إذ ظهرت طبقة جديدة من الرجال احتلوا مكان الصدارة . ولم يكن رؤساء هذه الطبقة محاربين أو « أقوياء » ، وإنما كانوا من « الكهنة » أو بمعنى آخر كانوا رجالا ضعفاء ، يعتمدون على قوتهم العقلية وليس على قوتهم الجسمانية . وهم فى نضالهم ضد سادتهم المحاربين السابقين فرضوا على المجتمع قانونا جديدا للسلوك . **ونظرا لافتقارهم إلى قوة الجسد اخترعوا ما زعموا أنه فضائل الروح ، وابتكروا نظاما للأخلاق ليخفوا وراءه نقائصهم وعيوبهم الخاصة ! ولما كانوا عاجزين عن الانتصار بالسيف ، فقد حكموا بسلاح « التقوى والصلاة » .. ولضمان بقاء نفوذهم ، نادوا بحقوق الطبقات الدنيا المغلوبة على أمرها ، وبشروا بعودة العزة والمجد إلى المستضعفين ، والكرامة والسؤدد إلى المستذلين !.. ثم وضعوا أسس دعاية دينية تمجد نقائصهم الخاصة ، قالوا فيها إن البؤساء وحدهم هم الصالحون ، والفقراء والضعفاء هم الأخيار ، والمحتاجين والمرضى والمتألمين هم الأتقياء**

المباركون ، الذين كتب لهم وحدهم الخلاص !.. أما الأقوياء والأرستقراطيون فهم فى كل عصر أصل الشر والبلوى ، وهم الملحدون والزنادقة ، الذين تحل اللعنة على رؤوسهم إلى الأبد » !

ومضى نيتشه يقول : « وهكذا احتل الثعلب مكان النسر .. لقد كان انتقاما بارعا من جانب الجبناء ضد ذوى الجرأة والجسارة . لقد أبعد السادة الأقوياء من مملكة السماء ، وانتصرت أخلاق الرعاع والدهماء ! » .

الخير لدى الأسد .. شر لدى الحمل !

● **واستطرد** الفيلسوف المتمرد يقول : « إن ما أدخل على المجتمع المتمدين من اصطلاحات الضمير والخير والشر ليس سوى نفاق محض . والواقع أن الإنسان القوى الحر لا يشعر بالخجل مما يرتكبه من أعمال ، وهل تشعر النسور الجارحة بالخجل إذا هى حطت على الحملان الضعيفة وافترستها ؟.. وهل يحق لنا أن نطلب من الأقوياء ألا يمارسوا قوتهم ؟ **إن القوى لا يملك الخيار فى أن يصبح ضعيفا ، تماما كما لا يملك الضعيف أن يصبح قويا ! وليست فى الأخلاق قيم مطلقة ، فليس ثمة خير محض ولا شر محض ، إنما كل شىء نسبى . فما هو خير للأسد أو النسر قد يكون شرا للحمل والشاة ! »** .

وذهل أصدقاء نيتشه القليلون لهذه الآراء الجريئة ، ونظروا — وقد استولى عليهم الرعب والخجل — إلى هذا الرجل الذاوى الواهن الذى

انبثقت من بين شفتيه كل هذه الحمم البركانية ! .. وما لبثوا أن قاطعوه ونبذوه وتركوه وحيدا . فما كان ليخطر لهم على بال أن يرتكب نيتشه هذه الخطيئة التى لا تغتفر ، وهو الرجل الوادع الرقيق فى حياته الخاصة ، الذى لم تكن نفسه تطاوعه على قتل حشرة ، فإذا هو يدعو إلى تحطيم كل القيم .. ويهاجم الدين .. ولا يتورع عن إبادة الإيمان بالسماء ذاتها !

تكلم زرادشت .. فلم يستمع أحد !

● **وعندما** ذهب إلى إيطاليا راح يصعد إلى قمم الجبال ويستغرق فى التأمل .. وهناك خطرت له فكرة الرجل المتفوق — أو السامى — « السوبرمان » . وكانت فكرة لم تخطر من قبل على بال أحد : « يا من تشكون اليوم من الوحدة ، يا من تقفون فى عزلة ، إنكم ستصبحون شعبا فى يوم ما .. أنتم يا من اصطفيتم أنفسكم ، ستكونون شعبا مختارا ، ومنه سيظهر الرجل المتفوق .. السوبرمان ! » . وبدأت الصورة تكبر وتتضح شيئا فشيئا أمام بصيرته : صورة « السوبرمان » !

وروى نيتشه قصة هذا الخاطر على لسان نبى فارسى يدعى « زرادشت » ، وأطلق على الكتاب : « هكذا تكلم زرادشت » . وقد كتبه على شكل ملحمة من الشعر المنثور ، تمتزج فيها البساطة والوضوح ، بالغموض والإبهام !.. **لكن العالم أبى أن ينصت لما قاله « زرادشت » ، فأعرض عن الكتاب الذى طبع منه « نيتشه » أربعين نسخة على نفقته الخاصة ، فلم يجد من يشتريها على قلة عددها ، واضطر إلى توزيعها دون**

مقابل !.. لقد أرسل « صاعقة » فى دنيا البشر ، فإذا به أول ضحايا قوتها : إذ عاوده الصداع القديم ، وأعمى الألم عينيه فلم تعودا تقويان على أن تحدقا فى الأفق البعيد !



ومن عجب أن الكتاب الذى أعرض عنه العالم فى حياة نيتشه ، لم يلبث أن وجد رواجا وخلودا — بعد وفاته — كلون من ألوان الفلسفة والفكر !

يتنبأ بحروب القرن العشرين !

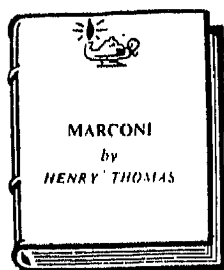
● وراح نيتشه يتنقل ، من سويسرا إلى البندقية ، ومن جنوا إلى نيس ، ومن تورين إلى مارينباد ، لا يكف عن الدعوة إلى السلام عن طريق الحرب !.. وضعف بصره إلى درجة أنه لم يعد يستطيع أن يكتب سوى عبارات قصيرة كان يسميها « وحيا » . وكان مما كتبه : « إن كل شيء

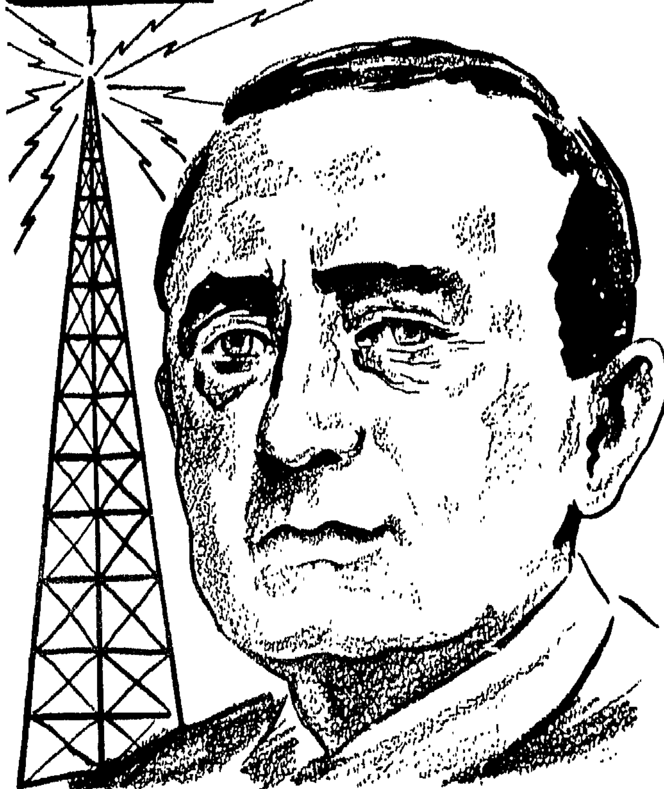
يتكرر على نفس النمط مهما طال الزمن . إنه البعث الأزلى . **فلتحذر شعوب الدنيا ، ولترتعد أمم أوربا فرقا !.. إن حكوماتها سوف تشتبك خلال خمسين عاما فى حرب كبرى من أجل أسواق العالم . ثم لا يلبث العالم حتى يشهد حربا طاحنة أخرى لا تبقى ولا تذر . وحينئذ سوف تبعث الوحوش الضارية ، وينهض عنصر الظافرين والسادة من بين رماد البشر المحترق** .. فلتحل اللعنة على الذين لا يستطيعون احتمال فلسفتى !.. أما الذين يقدرونها حق قدرها ، فقد كتب عليهم أن يصبحوا سادة العالم ! » .

ومضى عقله يضمحل ويضعف بالتدريج . وفى ٣ يناير عام ١٨٨٩ — وكان حينئذ فى الخامسة والأربعين من عمره — أصيب بالجنون .. وظل عقله مغمورا فى الظلام أكثر من عشر سنوات ، حتى لحق جسده بالعقل الميت ، فلفظ آخر أنفاسه فى عام ١٩٠٠ ، وهو فى السادسة والخمسين . **وهكذا انتهت حياة هذا الفيلسوف الذى وقف فى وجه الآلهة .. لقد حاول أن يطعنها ، فردت إليه الطعنة فى موطن تفكيره ، وحرمته من أعز ما يمتلكه الإنسان : العقل !**

ماركوني

قصة حياته وكفاحه في
سبيل العلم والاختراع





نبوءة ..!

— « انظرى !.. يا لكبر أذنيه ! » .

فأجابت أم الطفل المولود قريبتها المدهوشة : « إنه بهاتين الأذنين سوف يستطيع التقاط أخفت الأصوات من الهواء ! » .. وكانت الأم تعنى أنه سيضير موسيقيا ، فقد كانت هى ذاتها من المغرمات بالموسيقى .. ولكن الأقدار كانت تهيئ للطفل مستقبلا فذا ، أخطر شأنا وأبعد صيتا من كل ما توقعته أو تمنته له أمه !

وشب الصبى منذ حداثته مجتهدا ، واسع الآمال ، ذا طبيعة حالمة .. ولعله ورث سعة الخيال عن أمه الأيرلندية ، ونشاط ومهارة اليدين عن أبيه الإيطالى .. وبتلكما اليدين النشطتين استطاع أن يحول أحلامه إلى حقائق !

● وقد ولد « جوجليلمو ماركونى » فى ٢٥ أبريل سنة ١٨٧٤ ببلدة « بولونيا » الإيطالية — البلدة التى قال فلكى قديم فى إحدى نبوءاته عنها : « إنها سوف تهب العالم هبتين عظيمتين : إحداهما للمعدة والثانية للحضارة والعقل ! » .. وقد تحققت نبوءته فعلا ، تحقق الجزء الأول منها حين فكر قصاب من قصابى المدينة فى ابتكار طعام جديد للناس ، هو طعام « السجق » — الذى يسمى بالإيطالية « بولونيا » ، نسبة إلى اسم المدينة — وتحقق الجزء الثانى من النبوءة حين اخترع الطفل الذى نحن

بصدده : اللاسلكى !

شغفه بالمعرفة والاطلاع

● وقد تلقى ماركونى دراساته جميعا على أساتذة خصوصيين ، فإن أباه الذى كان مزارعا ثريا أبى أن يدخله المدارس العامة .. فصار الفتى ينكب على المجلدات التى تحفل بها مكتبة أبيه فى ضيعته بناحية « بونتشيو » — قرب بلدة بولونيا — فيغترف المعرفة منها فى نهم وشغف شديدين ... وهكذا هضم الفتى مئات الكتب فى شتى الموضوعات ، وكان مولعا بصفة خاصة بما يدور منها حول الكهرباء والكيمياء والآلات البخارية .. وكان دائما يحاول أن يطبق علمه عمليا بواسطة التجربة ، محدثا نفسه بمنطق التشكك : « إنهم يقولون كذا وكذا ، ولكن كيف أصدق ما يقولون دون أن أجربه بنفسى ؟ » .

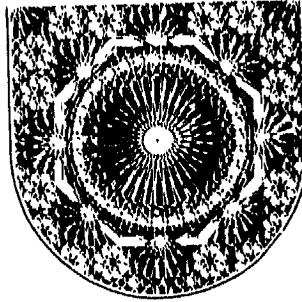
وذات يوم أنشأ لنفسه معملا خاصا صغيرا أسماه « معمل الساحر » ، وحين تيسرت له الأسباب نقل اهتمامه من معمله الصغير « البيتى » إلى المعامل الكبرى فى خارج البيت . وحاول مرة أن يستخرج « النترات » من الهواء ، ولكن التجربة باءت بالفشل ... وإن يكن فشله قد لفت نظره إلى ظاهرة هامة ، إلى « مخزن الكنوز » الذى فى الهواء .. فقد لاحظ ازدحام الهواء بتموجات صوتية لا حصر لها ، تنتظر من يلتقطها ويحصرها ثم يعيد توزيعها على صورة محسوسة ! وكان الفضل فى اكتشاف هذه الظاهرة إلى كبر أذنيه وحساسيتهما المرهفة !

وهكذا راح الفتى يسائل نفسه فى حيرة وإمعان فكر : « أين تذهب وماذا يحدث لملايين الكلمات والأصوات التى يلفظها أو يحدثها الناس فى كل لحظة كما تنثر الحبوب فوق سطح بحيرة !؟.. هل هى تضيع فى الهواء وتذهب إلى الأبد ، أم تظل سابحة فى الفضاء على غير هدى فى انتظار آلة خاصة تلتقطها ؟ » .

يد المصادفة ..!

● وذات يوم ، فيما هو يقلب فى رأسه هذه الفكرة ، وقعت فى يده مجلة بها مقال عن تجارب العالم الألمانى « هنريش هرتز » ، فقفز قلبه بين ضلوعه !.. ها هو يعثر أخيرا على مفتاح اللغز الغامض !.. ذلك أن البروفسور هرتز قد اخترع جهازا كهربائيا يرسل شرارة من أحد أركان الغرفة إلى ركنها المقابل دون أية واسطة ملموسة أو أسلاك !.. فكيف تعبر الشرارة الغرفة ؟ لا شك أنها تعبرها على متن تموجات الهواء ، كما تعبر قطعة الخشب عرض البحيرة على متن أمواج الماء !.. فإذا ثبتت صحة ذلك حقا ، أفلا يصير فى الإمكان توجيه الصوت من مكان إلى مكان ؟.. وما دام فى الإمكان إرسال شرارة كهربائية أو صوت ما بين أركان الغرفة ، أفلا يمكن إرسالها عبر الحقل أو المدينة ، أو الإقليم ، أو القارة .. أو ربما المحيط ؟ إن المسافة التى يستطيع الصوت أن يقطعها عبر الهواء تعتمد على قوة الدفعة الكهربائية ، كما تعتمد المسافة التى تستطيع قطعة الخشب أن تقطعها فوق سطح الماء على قوة يد الصبى التى تقذف بها !!

● وكانت الفكرة فذة فى بساطتها!... أو كما وصفها ماركونى نفسه بعد أعوام : « كانت من البداهة والوضوح من الوجهة المنطقية إلى حد جعل من المستغرب أن أحدا لم يفكر من قبل فى إخراجها إلى حيز التنفيذ !.. بل إلى حد أنى رجحت أن يكون هناك علماء أكثر نضوجا وخبرة قد سلكوا ذات الطريق وانتهوا إلى ذات النتائج .. ذلك أن الفكرة كانت منذ البداية بالنسبة لى أقرب إلى الواقع بحيث أدهشنى أن تبدو النظرية فى رأى الآخرين خيالا غير قابل للتصديق والتحقيق ! »



تشجيع الأم .. وسخرية الأب !

● وبلغ الفتى العشرين ، وهو ما يزال دائبا على تجاربه ، ساخرا من سخرية أساتذته ذوى الشعر الأشيب .. ثم صنع بالاشتراك مع أخيه « ألفونسو » جهازا حاول به إجراء تجربة إرسال الشرارة التى قام بها

العالم الألمانى « هرتز » ، ولكنه فشل .. فأعاد فك وتركيب أجهزته وآلاته ، المرة بعد المرة ، ولكن النتيجة كانت فى كل مرة واحدة : الفشل دائما !.. حتى بدأ الشك يتطرق أخيرا إلى قلبه : « ترى هل يكون الأساتذة ذوو اللحى البيضاء على صواب آخر الأمر ؟ » .

واشتد بالفتى النحول ، والاصفرار ، فرجاه أبوه فى إلحاح أن يفيق من « أحلامه الجنونية » ويخلد لعمل جدى فى أية وظيفة محترمة !.. وحذرته أمه من خطر الإصابة بانهيار عصبى لو استمر فى مجهوده المضنى .. أما أصدقاء الأسرة فكانوا يتأملون حاله وهم يهزون رؤوسهم قائلين فى أسف ظاهر : « أغلب الظن أن الأمر سينتهى به إلى مصحة الأمراض العقلية !» .

« لكنى لم أفقد قط شجاعتى » يقول ماركونى .. وإنما استمر الفتى فى تجاربه « الجنونية العقيمة » حتى قال لأبويه يوما إن عنده مفاجأة لهما ، ودعاهما إلى غرفة معمله ، حيث ضغط زرا صغيرا .. وكم كانت دهشتهما حين سمعا أزيز جرس يدوى فى غرفة من غرف البدروم يفصل بينها وبين المعمل طابقان !

قالت له أمه متعجبة : « ولكن كيف فعلت ذلك ... فى حين أنه لا توجد أسلاك تصل بين الغرفتين ؟! » .. فأجابها ابنها فخورا : « نعم ، لا توجد أسلاك البتة .. فلقد اخترعت جهازا لنقل الصوت بلا سلك ! » .

فقبلته أمه والدموع تطفر من عينيها قائلة : « فليباركك الله يا ابنى » .. أما أبوه فاكتفى بهز كتفيه وهو يبتعد قائلا : « إذن فقد

اخترعت اللاسلكى ؟ وماذا فى هذا ؟؟ » .

● وظل السنيور ماركونى « الأب » يسخر من تجارب ابنه .. لكنه لم يضن عليه بالمال ، فنفحه بمبلغ خمسة آلاف ليره « أى نحو ألف جنيه » كى يواصل « اختباراته الجنونية » !.. فأمد المبلغ الفتى بحماس مضاعف جعله يجاهر بقوله : « إننى بهذا التشجيع سوف أسمع العالم صوتى ! » ..

لكن أباه لم يبخل عليه بالسخرية حتى فى تلك المناسبة ، فأجابه قائلا : « بل حاول أن تجعل هذا التشجيع يكسو جسدك بالثياب أولا !.. إن اختراعك يبدو فى نظرى بلا فائدة عملية » .

— « ربما .. ولكننا سنرى ! » .

واستأنف الفتى تجاربه بهمة لا تعرف الكلل !

وكانت تلك الفترة من مراحل جهاد ماركونى (١٨٩٣ — ١٨٩٥) فترة اكتشافات و « احتمالات » علمية عظيمة .. فقد أحس قادة العلم فى تلك السنوات أنهم قد بلغوا فجر عصر نهضة علمية كبرى ، وخاصة فى ميدان الكهرباء .. ألم يتوصلوا إلى جعل التيار الكهربائى يخترق صخرة من الجرانيت أو جدارا سميكا ؟.. وهكذا كتب العالم الإنجليزى « سير وليام كروكس » يومئذ يقول « **لقد فتحت أمامنا مغاليق دنيا جديدة وعجيبة . فها نحن بإزاء احتمال نجاح اختراع فذ محير ، هو اختراع التلغراف الذى بلا سلك !.. وليس هذا مجرد حلم من رؤى فيلسوف خيالى ، وإنما هو أمر يوشك أن يغدو حقيقة واقعة .** فإن جميع الوسائل اللازمة لجعله فى متناول البشر فى حياتهم العادية قد

أصبحت على وشك الاكتشاف ، وغدت أمورا معقولة وواضحة من وجهة نظر الباحث العالم ، إلى حد أننا بتنا نتوقع أن نسمع فى أية لحظة أنها قد خرجت من حيز الاحتمال إلى دنيا الحقائق الواقعة » .

لا كرامة لنبى فى وطنه ..!

● وقد قدر لنبوءة هذا العالم الإنجليزى أن تتحقق أولا فى إنجلترا .. فإن الحكومة الإيطالية رفضت أن تشجع ماركونى فى أبحاثه ، فاضطر المخترع الشاب — البالغ من العمر اثنين وعشرين عاما — إلى أن يشد رحاله إلى لندن ، وبصحبته أمه الأيرلندية .. وهناك وجد الفتى الإيطالى آذانا مستعدة لتقبل « مزاعم » اختراعاته بعطف بالغ ، كما وجد جمهورا مستعدا لأن يتسلى بأنباء « السحر » الإيطالى الوافد على بلاده !

واستقبل ماركونى عند وصوله نفر من الصحفيين الإنجليز ، فابتدره أحدهم وهو يشير إلى الآلات التى اصطحبها « المخترع » معه : « أتريد أن تقول إن آلاتك هذه تصلح لشىء ؟ » .. فأجابه الشاب فى ثقة : « نعم ، إنى أعدها كى ترسل إشارات عبر الهواء » .

— حتى خلال الضباب ؟

— حتى خلال الضباب !

— أتعنى أن تقول إن إشاراتك سوف تخترق أى شىء ، وكل شىء ؟

— إن تجاربى تجعلنى أعتقد ذلك !

● ومضى الفتى فى تجاربه قدما حتى نجح فى أن تجعل رسائله

اللاسلكية تقطع مسافة مائة ياردة .. ثم ظل يضاعف قوة جهاز الإرسال حتى صارت الرسائل تقطع مسافة ثلاثة أميال ، فثمانية أميال ، فثمانية عشر ميلا .. حتى جاء يوم ٢٧ مارس سنة ١٨٩٩ فضغط ماركونى مفتاح جهاز نصبه فى قرية « ويمرو » الواقعة على الشاطئ الغربى بفرنسا .. بينما كان مساعده يصيخ السمع بجوار جهاز استقبال نصب فى ميناء دوفر عبر بحر « المانش » !.. وبعد ثوان من الترقب المرهف سمع ماركونى إشارة من مساعده يقول فيها : « رسالتكم وصلت على أتم صورة ! » .

وإذ ذاك تهافت الحاضرون على المخترع الشاب يهنئونه .. لكن ماركونى نحاهم عن طريقه قائلا فى لطف : « أما وقد غزونا القنال ، فقد صارت مهمتنا المقبلة أن نقهر المحيط ! » .

إنجلترا تحتضن الاختراع !

● وفطنت الحكومة الإنجليزية إلى أهمية وخطورة الاختراع الجديد ، فخفت إلى تشجيع ومعاونة المخترع الإيطالى بكل صور التشجيع والمعاونة .. كما تحمس نفر من رجال الأعمال الإنجليز فأسسوا شركة مساهمة « للتلغراف اللاسلكى » جعلوا رأسمالها مائة ألف جنيه !

وفعل التشجيع والترحيب فعلهما فى نفس ماركونى ، فانكب على آلاته وتجاربه ينشد المزيد .. ثم أنشأ سلسلة من المحطات على طول الساحل الإنجليزى ، وزود عددا من السفن بأجهزة لاسلكية ، فسهل عليها أن ترسل إشارات من وسط البحار تنبىء عن أماكنها أو تطلب النجدة عند

اللزوم !.. وعند هذا بدأ المتشائمون الساخرون يتراجعون عن موقفهم ويقتنعون ، فى بطء ، بأن « هناك فى هذا « اللاسلكى » شيء نافع ، آخر الأمر ! » .

وذات ليلة متكاثفة الضباب من أبريل سنة ١٨٩٩ أجريت التجربة الحاسمة ، التى أثبتت قيمة اختراع التلغراف اللاسلكى بصفة جدية .. ففى عتمة الظلام الحالك اصطدمت السفينة « ماتيوز » فى عرض البحر صدمة خطيرة ، فما أن أرسل جهاز اللاسلكى فيها إشارة الاستغاثة حتى حدثت المعجزة .. التقطت الجهات المختصة الإشارة فسارعت قوارب الإنقاذ إلى مكان السفينة الغارقة فأنقذت جميع ركابها !

تطور الاختراع

● حتى ذلك الوقت كان ماركونى قد نجح فقط فى إرسال إشارات قصيرة المدى .. لكن أحلامه كانت أوسع مدى من ذلك ، كانت تطمعه فى أن تخترق إشاراته الأطلنطى ، الأمر الذى اعتبره كبار العلماء وأساتذة الأكاديميات حلما وهميا !.. فلما نشر « ماكليور » فى جريدته مقالا أشاد فيه بما بلغه ماركونى من نجاح وما ينتظره من نجاح أعظم تصدى له أستاذ فى جامعة « كلارك » محتجا على نشر « أكاذيب خرافية » على الجمهور ، مدعما احتجاجه بالقول إنه من المستحيل أن تعبر الإشارة اللاسلكية مسافة بعيدة فوق سطح الكرة الأرضية ، لأن قوانين الطبيعة

تحول دون ذلك ، نظرا لكروية الأرض !

تلك كانت مزاعم ونظريات العلماء .. لكن تجارب ماركونى ضربت بها كلها عرض الحائط ! .. وأظهرت أن الموجات الصوتية تسير فى الهواء فى انحناء يوازى انحناء سطح الكرة الأرضية .. ومن ثم تستطيع تلك الموجات أن تحمل رسالة عبر الأثير حول الأرض كما تستطيع أمواج المحيط أن تحمل سفينة حول الأرض ..!

ومضى ماركونى فى تجاربه لتحويل تلك الأحلام إلى حقائق .. وشيئا فشيئا استطاع إطالة مدى المسافات التى تعبرها إشاراته اللاسلكية إلى خمسة وعشرين ميلا ، فخمسين ميلا ، فخمسة وسبعين ميلا !.. ثم دعى للسفر إلى أمريكا كى يذيع باللاسلكى على الولايات الأمريكية المجاورة نتائج السباق الدولى للزوارق بين فريق « كولومبيا » وفريق « سامروك » ، فجاءت النتيجة نجاحا باهرا لماركونى !.. وانتهز المخترع تلك الفرصة فركز جهوده فى بحث مسألة زيادة أبعاد أجهزته اللاسلكية حتى تستطيع عبور المحيط بين أمريكا وأوربا . وفى إحدى المناسبات سأله صحفى فى شك ظاهر : « أتعتقد أحقا أن ذلك ممكن ياسنيور ماركونى ؟ » فأجابه المخترع : « لا أستطيع أن أعتقد غير ذلك . كل ما يلزمنى فى سبيله إعداد جهاز إرسال يكون من القوة بحيث تطوى رسائله أمواج الأطلنطى ! » .

اللحظات الرهيبة !



● نحن فى يوم الخميس ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠١ ، وقد جلس ماركونى مكتئبا متوجسا أمام مكتب فى بناية « جون كابوت » التذكارية — الواقعة فى قمة برج فوق تل عال على شاطئ « نيوفوندلاند » — وأمسك جهاز استقبال تليفونى قرب أذنيه ، وراح يتطلع ببصره الحاد من خلال النافذة نحو المحيط المصطخب .. إن الأمواج شديدة الهياج اليوم .. فهل ترى يتمكن من التقاط الإشارة اللاسلكية التى أعدت العدة لإرسالها فى تلك الساعة من إنجلترا عبر الأطلنطى إلى أمريكا ؟

مضى ينقل بصره من الأمواج البعيدة المصطفقة عند الأفق إلى صفحة

السماء .. ثم إلى السارى الذى ثبتت فى أعلاه بضع أسلاك قصيرة يفصل بينها عازل من النحاس ... **واستبد به القلق ، ترى هل تقوى الأسلاك على مقاومة العاصفة الهوجاء التى تقترب قادمة من الأفق وهى تسوق أمامها رقع السحاب المتكاثفة ؟.. فى كثير من التجارب السابقة مزقت عواصف أقل من هذه أسلاك الأجهزة ، فهل يحدث ذلك اليوم ؟.. كلا ، إنه يجب ألا يحدث .. إن قارتين كاملتين تنتظران فى لهفة نتيجة هذه التجربة ولسان حال سكانهما هو التأكيد فى سخرية « مستحيل أن يحدث هذا ! » .**

● لبث ماركونى ينتظر ويترقب .. كان يعلم أن ذلك ممكن أن يحدث ، ولكن ؟.. وكان موعد البدء بإرسال الإشارة من إنجلترا قد حدد فى الساعة الثالثة بتوقيتها المحلى ، وهى توافق الساعة الحادية عشرة والنصف بتوقيت « نيوفوندلاند » ..

لكن منتصف الساعة الثانية عشرة مضى ، والثانية عشرة ، ثم الثانية عشرة والربع .. وماركونى جالس ينتظر الفرج ، واجف القلب !.. ما من صوت يسمع سوى عصف الريح واصطفاق الأمواج !.. ألعله مخطىء آخر الأمر ؟.. ولعل جمهور الساخرين هم الذين على حق ؟

الثانية عشرة والثلث .. الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والعشرين .. والثانية عشرة والدقيقة التاسعة والعشرين . ما للدقائق تتباطأ فى سيرها ؟.. لكأن كل شىء يمهد للفشل المحقق .. كم سيضحك العالم ساخرا من المخترع الدجال ! أواه يارب !

الثانية عشرة والدقيقة الثلاثين ، وفجأة أرهف ماركونى سمعه .. ترى

هل حواسه تخدعه ؟.. بل كلا .. فها هو صفير الجهاز يسمع خافتا ، ثلاث مرات ، معبرا عن حرف "S" وفقا لقواعد الشفرة . هل وقعت المعجزة أخيرا ؟

لكن ماركونى عاد إلى فندقه دون أن يحدث أحدا عن نتيجة التجربة . أراد أن يتحقق أولا فى اليومين التاليين من نجاحها ، فإنه كان قد أوصى مساعده المقيم فى إنجلترا أن يرسل الإشارة فى ثلاثة أيام متتالية ..

وكانت النتيجة واحدة فى الأيام الثلاثة : نجاحا باهرا !.. إن ماركونى على أتم استعداد الآن للتحدث إلى رجال الصحافة .. وهكذا طلعت جريدة « نيويورك تيمس » فى صبيحة ١٥ ديسمبر سنة ١٩٠١ وفى صدرها بالخط العريض هذا العنوان « جوجليلمو ماركونى يعلن أعظم كشف فى العصور الحديثة .. لقد عبرت الإشارة اللاسلكية المحيط الأطلنطى .. الخ » .

وبينما كان العالم كله يصفق للمخترع العبقرى ، كان ماركونى نفسه قد انصرف فى سكون إلى مواصلة تجاربه !!

المرأة .. أخيرا !

● وفى مارس سنة ١٩٠٥ أعطى ماركونى نفسه إجازة من عمله الشاق ، كى يتزوج من امرأة أيرلندية من النبيلات تدعى « بياتريس أوبريان » ، ابنة رجل اسمه اللورد « أشيكين » .. **لكن وفاقهما الزوجى لم يدم أكثر من فترة شهر العسل القصيرة ، ثم تلت ذلك تسع عشرة سنة**

من الخلاف الدائم والشقاق المستمر !.. فإن ماركونى لم يكن من طراز الأزواج الذين يتفرغون لزوجاتهم وتوافه حياتهم البيتية . لم يكن يمت إلى زوجته بقدر ما كان يمت إلى العالم المتمدين كله !.. ورغم أن الزواج أثمر ثلاثة أطفال فإنه انتهى آخر الأمر بالانفصال والفسخ (عام ١٩٢٤) .

لكن ماركونى أعاد التجربة فى سنة ١٩٢٧ — تجربة الزواج والحياة العائلية ، لا تجارب اللاسلكى ! — وفى هذه المرة تزوج من إيطالية حسناء هى الكونتس « ماريا كريستينابيزى سكالا » .. ونجح زواجه الثانى .. فقد علمته الأيام أن « يلهو » بعد أن تقدم فى السن ، فاشترى يختا جميلا وأعده كى يصلح قصرا ومعملا فى الوقت نفسه .. وأعانته حياته الجديدة على أن يسترد هدوء أعصابه ويغدو أكثر إرضاء لزوجته ، وعناية بتوافه الحياة البيتية ..!

السنوات الاخيرة ..

● وكانت السنوات الباقية من حياته سنوات عود حثيث إلى الشباب .. « فالعلم يجعل الإنسان شابا مهما شاخ ! » .. وتتابعت على حياته الأحداث ، البهيجة والأليمة على السواء : ففقد عينه اليمنى فى حادث سيارة .. ونال جائزة « نوبل » فى العلوم .. ومضى فى تحسين اختراعه الأكبر « الراديو » حتى بلغ به أقصاه .. وفيما هو يفكر فى احتمال

الاتصال لاسلكيا بالكواكب السماوية .. فاجأه الموت وهو على ظهر اليخت « الليترا » فى ٢٠ يوليو سنة ١٩٣٧ .. « فأبحر على سفينة أخرى ، كى يستأنف اكتشافاته فى بحر آخر! » .



حلمى مراد يقدم من كنوز كتب التراث

١ ـــ رسالة الغفران : وكتب أخرى

١ ـــ رسالة الغفران
٢ ـــ الكوميديا الإلهية
٣ ـــ جمهورية أفلاطون

٢ ـــ الأمير : وكتب أخرى

١ ـــ الأمير
٢ ـــ يوتوبيا
٣ ـــ المدينة الفاضلة
٤ ـــ نظرية التطور
٥ ـــ أصل الإنسان

٣ ـــ العقد الاجتماعى : وكتب أخرى

١ ـــ العقد الاجتماعى
٢ ـــ الإلياذة
٣ ـــ الأوديسَّة
٤ ـــ إميل

٤ ــ سالومي : ومسرحيات أخرى

١ ــ سالومى
٢ ــ المريض بالوهم
٣ ــ ترويض الزوج
٤ ــ سيرانو دى برجراك

٥ ــ جوكندا : ومسرحيات أخرى

١ ــ جوكندا
٢ ــ هرنانى
٣ ــ الحب الآثم
٤ ــ الجنس الآلى
٥ ــ سر سيدة القصر
٦ ــ الأم

٦ ــ مدرسة الأرامل : ومسرحيات أخرى

١ ــ جوديث
٢ ــ الهاربة من الفضيحة
٣ ــ رجل الأقدار
٤ ــ كاليجولا
٥ ــ مدرسة الأرامل

حلمى مراد يقدم من مكتبة الأعْلام

٧ ــ الكسندر ديماس

١ ــ الكسندر ديماس (من أعلام الأدب)
٢ ــ لويس باستير (من أعلام الطب)
٣ ــ تشايكوفسكى (من أعلام الموسيقى)
٤ ــ مايكل أنجلو (من أعلام الفن)
٥ ــ مختار (من أعلام النحت)
٦ ــ نيتشة (من أعلام الفلسفة)
٧ ــ ماركونى (من أعلام الاختراع)

٨ ـــ مروحة الليدى وندرمير : ومسرحيات أخرى

١ ـــ مروحة الليدى وندرمير

٢ ـــ خطايا الحب

٣ ـــ عذراء الغابة

٤ ـــ العدالة

٥ ـــ البطل لوسيد

رقم الإيداع ٣١٨٩ / ١٩٩١
الترقيم الدولى 4 - 0655 - 11 - 977

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

حلمي مراد يقدم كنوز كتب التراث

١ ــ رسالة الغفران :

١ ــ رسالة الغفران
٢ ــ الكوميديا الإلهية
٣ ــ جمهورية أفلاطون

٢ ــ الأمير :

١ ــ الأمير
٢ ــ يوتوبيا
٣ ــ المدينة الفاضلة
٤ ــ نظرية التطور
٥ ــ أصل الإنسان

٣ ــ العقد الاجتماعى

١ ــ العقد الاجتماعى
٢ ــ الإلياذة
٣ ــ الأوديسة
٤ ــ إميل

٤ ــ سالومى

١ ــ سالومى
٢ ــ المريض بالوهم
٣ ــ ترويض الزوج
٤ ــ سيرانو دى برجراك

٥ ــ جيوكندا

١ ــ جيوكندا
٢ ــ هرنانى
٣ ــ الحب الآثم
٤ ــ الجنس الآلى
٥ ــ سر سيدة القصر
٦ ــ الأم

٦ ــ مدرسة الأرامل

١ ــ جوديث
٢ ــ الهاربة من الفضيحة
٣ ــ رجل الأقدار
٤ ــ كاليجولا
٥ ــ مدرسة الأرامل

٧ ــ ألكسندر دیماس

١ ــ ألكسندر ديماس
٢ ــ لويس باستير
٣ ــ تشايكوفسكى
٤ ــ مايكل أنجلو
٥ ــ مختار
٦ ــ نيتشة
٧ ــ ماركونى

٨ ــ مروحة اللادى وندرمير

١ ــ مروحة اللادى وندرمير
٢ ــ خطايا الحب
٣ ــ عذراء الغابة
٤ ــ العدالة
٥ ــ البطل لوسيد
٦ ــ الحياة نفاق

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى ـ الفجالة

الثمن ٥٠ ٣ قرش